

" العمل " فى الفكر التربوى الإسلامى^(١)

تشكل " العقيدة الإسلامية " المحور الأساسى الذى دار حوله الإنتاج الفكرى فى التراث العربى فى كافة مجالاته وأشكاله طوال ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً من القرون الماضية مثلت القرون الخمسة الأولى منها على وجه التقريب من بعد ظهور الإسلام نزوة الازدهار التقافى . ومن المعروف أن الإنتاج الفكرى الذى شهدته هذه المنطقة لم يكن جهداً قام به العرب وحدهم ، وإنما شاركهم فيه علماء ومفكرون من مختلف البلدان التى انضوت تحت لواء الإسلام ، فهناك فرس وهنود وأتراك وأسبان ... الخ ، ولكنه إنتاج أفرزته حضارة قدح زنادها ظهور الدين الإسلامى وأتاح لها النمو والازدهار بما أقامه من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ومن هنا كان اختيارنا لبحث قضية العمل داخل هذا الإطار دون أن يعنى ذلك أننا نفاضل بين منهج دينى وبين منهج علمانى ، لأننا نؤمن بضرورة استخدام منهج البحث العلمى فى دراسة مختلف الموضوعات أياً كان نوعها أو اتجاهها ، كما أنه لا يعنى أننا نفاضل بين العقيدة وبين القومية ، لأن المفاضلة تكون بين الأعيار والمتضاد من المعائل والأثنياء ، ونحن لا نؤمن - على الأكل بالنسبة للباحث - بأن هناك تضاداً وتناقضاً بين القومية والدين ، وإنما المعاملة كلها التزام بالواقع التاريخى لا أكثر ولا أقل ، فلقد أتاحت الظروف للباحث كثرة التجوال فى رحاب التاريخ الخاص بهذه المنطقة وخرجنا بنتيجة محددة ، وهى أنه أياً كان اتجاه الباحث وأياً كانت عقيدته ، وأياً كان هدفه فإنه لا يستقيم الأمر لدراسته ما لم تقم على تلك المسلمة التى نعتد عليها ، وهى أن " العقيدة " الإسلامية كانت هى الإطار ، أو هى المسرح ، أو هى المناخ الذى تشكلت فيه وحدثت عليه وتفتت سائر ألوان وقطاعات وتيارات الثقافة فى هذه المنطقة منذ ظهور الإسلام .

(١) قدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد ، يونيه ١٩٧٨ عن " التراث التربوى العربى " .

أولاً - معنى العمل ومجالاته

" الإيمان " و " العمل " و " التربية " :

مما قد لا يكون لنا فضل في إبرازه والتتويه به ، القول بأن " العمل " و " العقيدة " وجهان لعملة واحدة ، وإنما نحن هنا لا نفعل أكثر من مجرد التذكير أو انتهاج نهج المنطق القياسي عندما يبدأ من مقدمات معلومة كي ينتهي بنا إلى نتائج لم تكن معلومة . ففي مجال العقيدة الدينية بالذات لا يمكن أن يكون الهدف ، مجرد ظهور " كتاب " يحوى بين دفتيه عدداً أكثر أو أقل من التعاليم والمبادئ والأفكار ، وإنما يكون الهدف هو إعادة صياغة الإيمان بما يتفق وما جاءت به تلك العقيدة ، وألا تظل معالم هذه الصياغة حبيسة الأوراق أو تضيع في موجات الهواء ، وإنما نتشخص واقما وفعلا في ملوك إنسانى يفكر بمقتضاها ويتخيل ويتصور ويخطط ويقيم علاقاته . وإذا قلنا هذا ، فإن من أهم ما يترتب عليه ، هو أن هناك تلازماً بين العقيدة الدينية وبين التربية ، حيث إن التربية - كما نعلم - هي تلك العملية الموجهة توجيهاً قائماً على بصر لتحويل الأفكار والمبادئ على المستوى النظرى إلى ملوك على المستوى الفعلى . أما النتيجة الأخرى ، فهي التلازم بالتالى بين العقيدة والعمل لأن التربية سوف تعجز بالتأكيد عن القيام بمهمة التشخيص الواقعى والتجسيد الفعلى إذا توصلت إلى ذلك بالأساليب النظرية وحدها ، وإنما يتم لها ذلك بإجراءات وأفعال وأعمال تتحت فى أرض الواقع فتشكل الإنسان بالفعل .

فنحن إذا أردنا التشبيه بعملية البناء الهندسى ، نجد العقيدة هي تلك التصميمات التى يضعها ويتصورها ويرسمها " المهندس " ، والتربية هنا هي ذلك العمل الذى يقوم به " المقاول " الذى يستحيل عليه إخراج التصميم الهندسى إلى حيز الوجود إلا بأفعال وأعمال وتغيير فى الواقع .

من أجل ذلك نجد هذا الاهتمام الشديد بـ " العمل " .. فى المصادر الرئيسية للفكر الإسلامى وفى مقدماتها بطبيعة الحال ، القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وذلك السعى الحثيث لرفع مكانته والدعوة إليه ، وبإبراز جوهريته للحياة الإنسانية . وفى مقررات علماء الإسلام : إن العبادة المتعدية أفضل من العبادة القاصرة ، والعبادة المتعدية هي العمل الذى يفعله الإنسان على سبيل العبادة ليتعدى بنفسه إلى غيره من الناس ، والعبادة القاصرة هي التى يكون نفعها قاصراً على صاحبها وفاقها .

وأوضح ما يؤكد لنا ذلك ، هو تلك الآيات القرآنية العديدة التي تقرن بين الإيمان وبين العمل ، ومن ذلك على سبيل المثال :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢) .
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ (٣) .
- ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ ﴾ (٤) .

فالإيمان لابد أن يقترن بالعمل لأن العمل ثمرة الإيمان وبرهانه ، وليس الإيمان بالتمنى - كما يقول الرسول ﷺ - ولكن ما وقر في القلب وصدقته العمل .

ولقد قال قوم فرطوا فيما يجب عليهم : نحن نحسن الظن بالله ، فقال عنهم الرسول ﷺ كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، ذلك أن العمل غاية إنسانية ، وواجب اجتماعي في الحياة ، وهو في الوقت نفسه من القيم الدينية التي تصل إلى مستوى العبادة لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة .

وإذا كان كل من في الوجود يعمل ، من أعظم الأجرام السماوية إلى النملة التي لا يسمع دبيبها على الأرض ، إلى الذرة التي تقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر - وهي حركة دائبة تُولف بين أجزائها الثلاثة (الإلكترون والبروتين والنيوترون) - فإن الإنسان لا يستطيع أن يخرج على نواميس الكون والحياة فيعيش بلا عمل وإلا لفظته الحياة ونبذه المجتمع وتحطم كيانه وفقد معنى وجوده (٥) .

وجوب العمل :

وإذ تبلغ العلاقة بين العقيدة والعمل هذه الدرجة من القوة ، كان من الطبيعي بعد ذلك أن يصبح واجبا وفرضا (٦) ، يقول بعض الصحابة وقد رأوا شابا قويا يسرع إلى عمله : لو كان هذا في سبيل الله !! فيقول الرسول عليه الصلوة والسلام : " لا تقولوا هذا ، فإنه وإن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين

(١) الكهف / ١٠٧ .

(٢) الكهف / ٣٠ .

(٣) يونس / ٩ .

(٤) الرعد / ٢٩ .

(٥) محمد كامل حنطة : القيم الدينية والمجتمع ، سلسلة أقرأ (٣٨٦) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٧١ .

(٦) جمال الدين عياد شريعة الإسلام ، العمل والعمل (١) ، مكتبة الخاتجي ، القاهرة . د . ت . ص ١٢ .

كبيرين ، فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها ، فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان ^(١) ، ويقول في مناسبة أخرى : ' العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع ' ^(٢) ، وكذلك يقول عمر بن الخطاب لرجل ترك عمله الذي يرتزق منه ورحل إلى المدينة ليجاهد : ' ارجع ، فإن عملا بالحق ، جهاد حسن ^(٣) . وروى أيضا أنه بعث سفيان بن مالك ساعيا بالبصرة ، فمكث حيناً ثم استأننه في الجهاد ، فقال له عمر : أولمت في جهاد ؟ ^(٤) .

ولو لم تكن للعمل الحلال تسميته التي تقارب تسمية العبادة ، لما سمي سبحانه وتعالى الإيمان ' تجارة ' ، إذ يقول : ﴿ هَلْ أُلْكُمُ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَمُّوهُ ﴾ ^(٥) ، ولما قرن العمل بالصلاة إذ يقول : ﴿ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَبِهُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ^(٦) وبالجهاد ، إذ يقول ﴿ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٧) ، ولما أذن بالتجارة في مواسم الحج ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٨) ، بل إن الحج إنما فرض لينتفع الناس بالتجارة كما ينتفعون بالعبادة وياجمعهم في سعيد واحد ، وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ ^(٩) .

وقد خفف الله سبحانه وتعالى عن رسوله ، ومن افتدى به من المسلمين أعباء قيام الليل لأسباب منها : ألا يرهق التعبد البعض ليلاً فيقعدهم عن طلب الرزق نهاراً ، وفي هذا يقول ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرْضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ^(١٠) .

(١) الحافظ المنذرى : الترغيب والترهيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ، ص ٦٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩٧ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ، ص ٩٨ .

(٥) الصف / ١٠ .

(٦) الجمعة / ١٠ .

(٧) المزمل / ٢٠ .

(٨) البقرة / ١٩٨ .

(٩) الحج / ٢٧ ، ٢٨ .

(١٠) المزمل / ٢٠ .

فنحن هنا نرى الله قد جعل الضرب فى الأرض طلبا للرزق من أسباب التخفيف ، مثله فى ذلك كمثل الممرض ، كما أشارت الآية ، وفى هذا ، الإثارة إلى أن العمل فى نظر القرآن ، ضرورة من أكبر الضرورات (١) .

ونحن إذا رجعنا إلى الصورة التطبيقية فى حياة الأنبياء والرسل ، وهم الذين يعطون القُدوة والمثل ، نجد الدليل الواضح على قيمة العمل فى ميزان الدين ، فلقد كانت حياتهم كلها عملا وجهادا ، ليس فى ميدان الفكر والدعوة فحسب ، ولكن فى مجال العمل اليدوى وغيره من الأعمال ، فقد عمل داود عليه السلام وكان خواما ، وعن هشام بن عروة عن أبيه ، قال : " كان داود يخطب الناس على المنبر وإنه ليعمل الخوص بيده ، فيعمل منه القفة ، أو الشيء ، ثم يبعث به مع من يبيعه ويأكل من ثمنه " . وكان (إدريس) خياطا يتصدق من كسبه بما فضل من قوته ، وكان (زكريا) نجارا ، وكان (موسى) يعمل أجيرا . وفى القرآن حكاية عن إحدى بنات شعيب : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

وقد عمل النبى محمد ﷺ فى التجارة مع عمه أبى طالب ، ولخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها ، ورعى الغنم (٢) ، وكان يقوم بكثير من شئون البيت ، وقد سئلت عائشة : كيف كان النبى ﷺ ؟ قالت : " كان يكون فى مهنة أهله ، أى فى خدمتهم " . وروى عن أبى عباس أن قوما قدموا على الرسول فقالوا إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال أيكم يكفيه طعامه ؟ فقالوا : كلنا ، فقال : " كلكم خير منه " . وفى حديث ثان قال : " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف " . وكان عمر بن الخطاب يقول : " إنى لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا : لا ، سقط فى عيني " .

وحملت أسماء كبار المحدثين والفقهاء أسماء تتم عن حرفهم فبين البارزين من رواة الحديث أو الفقهاء : " الحذاء " و" الخصاف " و" القفال " . وكان الإمام أحمد بن حنبل يفرغ نفسه لصنوف من العمل كالكتابة ، أو الحمل فى الطريق (٣) .

ويقول ﷺ : " إن قامت القيامة ويبد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يفرسها ، فليفرسها ، فله بذلك أجر " .

(١) جمال الدين عياد ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ص ١٨٨ .

(٣) جمال البنا : العمل فى الإسلام ، كتاب العمل ، العدد (٨٥) ، مارس ١٩٧١ ، القاهرة ، ص ٢٧ .

وفى هذا الحديث النبوى تتمثل قيمة العمل وأهميته فى هذه الحياة ، حتى فى اللحظات الأخيرة التى يودع فيها الإنسان وتودع الدنيا كلها الحياة ، ولو قال الرسول : إن واجب الإنسان حين يرى القيامة قد أقبلت هو أن ينفذ يده من شئون الدنيا ، وأن يمارع إلى الاستغفار والتوبة ، لكان هذا متسقا مع طبيعة الموقف واتجاه الدعوة ، ولكنه ﷺ على العكس من ذلك ، يذهب إلى أنه لو كان بيد أحدنا فسيلة وقد قامت القيامة فاستطاع أن يفرسها قبل أن تدهمه القيامة ، فليفعل .

نعم فسيلة النخل التى لا تثمر إلا بعد سنوات ، يحثنا هنا على غرسها ولو قبل القيامة بلحظات لأن الإنسان مطالب بأن يعمل ولا يتوقف عن العمل مادام قادرا عليه حتى نهاية حياته ، كما أن الإنسان مطالب بأن يعمل مهما أبطأت ثمرة العمل ، ومهما فاته إدراك جزاء عمله فى حياته لا أن يقتصر الإنسان على ما يجنى ثمرته العاجلة أو ما يعود عليه وحده بالخير ، وإلا ما استقام أمر الحياة ، ولا توارثت الإنسانية الحياة جيلا بعد جيل ولا ضحى الأبناء فى سبيل الأبناء أو بذل الأفراد جهودهم فى خدمة المجتمع ، ولما جنى اللاحقون ثمرات عمل السابقين ، ولا عمل هؤلاء اللاحقون بدورهم ليبنى من يأتى بعدهم ثمرات أعمالهم ^(١) .

أنواع العمل :

وإذا كانت المواقف التى نجد فيها حديثا عن العمل فى مصادر التراث الإسلامى قد تعددت تعددا ملفتا للنظر ، إلا أن الذى كان يقصد به فى كل موقف من المواقف قد لا يكون مماثلا لغيره ، إذ تناولت هذه المصادر مفهوم العمل بمعان مختلفة ولأغراض متعددة .

ونحن إذ نبسط فيما يلى بعض هذه المعانى وتلك الأغراض ، لا نستطيع أن نؤكد على وجه التحديد أن هناك فواصل دقيقة تفصل بين كل منهما فضلا تاما فهناك تداخل ما قد يحدث فى بعض الأحيان ، أما من الناحية العامة الكلية ، فإننا بالفعل نستطيع أن نميز بين ثلاثة معان للعمل يمكن إجمالها فيما يأتى .

١- العمل الإنتاجى : وهذا النوع يمكن أن نلمحه بوضوح من خلال التطبيق فى عهد الدولة الإسلامية وفى التعليمات الإسلامية الرسمية التى لا يزال التاريخ يحتفظ بشيء منها حتى الآن ، فمن تلك التعليمات ، البرنامج الذى وضعه على بن أبى طالب لواليه على مصر

^(١) حنة ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

محمد بن أبى بكر وأمره بالسير عليه وتطبيقه ^(١) ، ففى أمالى الشيخ الطوسى ، أن أمير المؤمنين لما ولى محمد بن أبى بكر مصر ، كتب له كتابا وأمره أن يقرأه على أهل مصر ، وأن يعمل بما احتواه ، وقد كتب الإمام فى هذا الكتاب يقول :

(يا عباد الله ، إن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله ، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم . أباح لهم الله الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ، قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) . سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، وشاركوا أهل الدنيا فى دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون ، وشربوا من طيبات ما يشربون ، ولبسوا من أفضل ما يلبسون ، وسكنوا من أفضل ما يسكنون ، وركبوا من أفضل ما يركبون ، أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا ، وهم غدا جيران الله يتمنون عليه فيعطيتهم ما يتمنون ، لا ترد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة ، فإلى هذا يا عباد الله يشقائق من كان له عقل ويعمل بتقوى الله) .

وهذا الكتاب التاريخى الرائع ، لم يكن قصة يتحدث فيها الإمام عن واقع المتقين على الأرض ، أو واقعهم فى التاريخ ، وإنما كان يستهدف التعبير عن نظرية المتقين فى الحياة ، والمثل الذى يجب أن يحققه مجتمع المتقين على هذه الأرض ، ولذا أمر بتطبيق ما فى الكتاب ورسم سياسته فى ضوء ما جاء فيه من وصايا وتعليمات ، فالكتاب إذن واضح كل الوضوح فى أن اليسر المادى الذى يحققه نمو الإنتاج واستثمار الطبيعة إلى أقصى حد ، هدف يسعى إليه مجتمع المتقين ، وتفرضه النظرية التى يتبناها هذا المجتمع ويسير على ضوئها فى الحياة .

والهدف فى الوقت نفسه مغلف بالإطار المذهبى ، ومحدد بحدود المذهب كما يقرره القرآن الكريم :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ^(٣) فالنهى عن الاعتداء فى مجال الانتفاع بالطبيعة واستثمارها ، تعبير بالطريقة القرآنية عن ذلك الإطار المذهبى العام .

(١) محمد باقر الصدر : اقتصادنا ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٥٧٢ .

(٢) الأعراف / ٣٢ .

(٣) المائدة / ٨٧ .

وقد يقول بعض الناس : إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألوانا من العبادات وضروبا من القربات والمراسيم ، تأخذ من أوقات الناس شيئا يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصنوف عباداتها ، وخذ مثلا الصلاة الإسلامية التي تؤدي في كل يوم خمس مرات : أليس في ذلك تعطيل للعمل ، وتعويق في عصر الآلة والسرعة والمنافسة الممعترة ؟

والحق أن العبادات في الأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل ما لم يشرع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فيشققوا على أنفسهم ويرهقوها عسرا . على أن القليل الذي ينفق في العبادة ليس وقتا ضائعا على الحياة والإنتاج . كلا . إنه شحذ للهمة ، وتوليد للقوة ، وصقل لمعدن النفس لتعود إلى معركة الحياة أقوى وأمضى . وإنه لظلم للواقع أن يقياس الشيء بأثره المادى المباشر المنظور فقط ، ويغفل عن أثره الفعال غير المباشر في داخل الإنسان وروحه المعنوية (١) .

وفي فكرنا الحديث ، نجد رفاة الطهطاوى يطرح تساؤلا يختص بالمفاضلة بين الموارد الطبيعية وبين " العمل " الإنمائى وأيهما منبع الغنى والثروة ، ومن خلال عرضه لوجهات النظر حول هذا الموضوع يقف الطهطاوى بلا تردد فى صف " العمل " بمعناه الإنتاجى ، الذى يسميه " الشغل " مستدلا على ذلك بمثال الثروة الناتجة عن الزراعة " بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل ، وإلا بقيت مجدبة إذا انقطع الشغل عنها فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه " (٢)

ويؤكد فى موضع آخر " أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة ، ومع أن كد العمل مصدر السعادة الأصلية فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته ، بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة ، أزيد مما تساعد خصوبة الأرض عليه ، يعنى لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة " . ويدلل على هذا بأن الأمم المتقدمة (فى ممارسة الأعمال والحركات الكدية) قد خطت خطوات ضخمة

(١) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، الدار المسعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٦ .
(٢) رفاة الطهطاوى : مناهج الأنبياء المصرية فى مناهج الآداب العصرية ، فى (الأعمال الكاملة) ، تحقيق محمد عمار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

فى طريق الغنى ' بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج ، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوربا وأفريقية ، ظهر لك حقيقة ذلك ' (١) .

إن هذا النص المهم ليبين لنا مقدار ذلك الوعى الذى توافر لمتل هذا المفكر العظيم عندما يشير منذ أكثر من مائة سنة على تلك الحقيقة التى تدور حولها اليوم مختلف دراسات اقتصاديات التعليم ، وهى أن توافر عنصر الثروة المادية وحده لا يمكن أن يكون هو العامل الحاسم فى عملية التنمية ، وإنما هو ' العمل الإنسانى ' .

وعقد ابن خلدون فى مقدمته بابا كاملا هو الباب الخامس من الكتاب الأول بعنوان ' فى المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال ' . والفصل الأول منه جعل موضوعه ' فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ' . وقد بنى هذا الموضوع على تلك المعلمة الأساسية وهى ' أن الإنسان يفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره ' (٢) . ومن ثم فهناك ضرورة تدفعه إلى ' اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته ' . ثم إن الحصول على المكاسب لا يكون إلا بـ ' العمل ' الإنتاجى ويوضح ذلك بقوله : ' ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل ، فلا بد فى الرزق من سعى وعمل ' .

وإذا كان الإنسان مضطرا إلى تحصيل الرزق لاستمرار حياته وأن ذلك لا يتم إلا ' بالسعى والعمل ' ، فإن الهدف من العمل هنا يكون إنتاجيا : ' اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله لأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل إلا بهذه ، جعلت موضعا له على طريق المبالغة ' (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

ثم كتب ابن خلدون كذلك عن العمل الصناعى وكيف أن من الضرورى أن يقوم على علم (١) . ويبدو لديه الوعى بالنظرة الكلية فى التغيير الثقافى حيث يؤكد أن التقدم فى الصنائع لا يتم إلا ' بكمال العمران الحضرى وكثرتة ' ، وأيضا لأن ' رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده ، وبالتالي فإن البلد التى تتهاجر حضارتها ' انتقصت منها الصنائع ' كذلك .

٢- العمل الأخلاقى : وقد يتصور البعض أن ' القانون ' كفيل بتنظيم الأعمال الخلقية بحيث يمكن الاستغناء به عن الدين ، ولكننا نذهب إلى اتجاه آخر ، نؤكد فيه أن القانون إذا كان من المحتم ألا يحتوى على ما يخالف الفضيلة الإنسانية ، إلا أن كل الفضائل لا تكون صالحة لأن تدخل تحت سلطان قانون زاجر ، فالفضيلة تحرم الغيبة والنميمة والكذب والنفاق والمخالطة والمخادعة ، ولكن لا يمكن وضع عقوبات دنيوية يطبقها القضاء لأنها لا تقع تحت سلطان الإثبات الدنيوى ، فيبقى العقاب عليها أخرويا (٢) . ومن هنا كان ذلك للتربيط بين ' الدين ' و ' الأخلاق ' .

ولما كان الإنسان لديه الاستعداد والقدرة أن يقوم بعمل فيه صلاح المجتمع وسعادة البشر وكذلك أن يقوم بعمل فيه إفساد للمجتمع وإشقاء للبشر ، أبرز القرآن الكريم مبدأ ' المسؤولية الأخلاقية ' ، فالإنسان مسؤول عن عمله - فردا أو جماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا مجتمع بوزر مجتمع ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٣) ، ويقول أيضا ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآكُمُ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْصَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

إن مناهج المسؤولية فى القرآن جامع لكل ركن من أركانها (٥) . يتغلغل إليه فقه الباحثين، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها الأساسية : تبليغ ، وعلم ، وعمل ، فلا تحقق للتبعية على أحد لم تبليغه الدعوة : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦) .

(١) الفصل السادس عشر من الباب الخامس ، ص ٤٠٦ من المقدمة .

(٢) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ، فى (التوجه الاجتماعى فى الإسلام) ، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) الطور / ٢١ .

(٤) البقرة / ١٣٤ .

(٥) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن فكرى ، دار الهلال ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٢ .

(٦) يونس / ٤٧ .

وأول فاتحة فى خلق الإيمان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) .

وأما العمل ، فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) .

ونسوق فيما يلى عددا من النماذج لأعمال خلقية دعا إليها الإسلام :

أول أمر اتجه إليه الإسلام فى تكوين الأخلاق ، هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأوجب على الأفراد على وجه الواجب الكفائى أن يكون بينهم من يتولى الإرشاد العام والتربية الأخلاقية .

وإذا كان الإرشاد العام فرضا كفائيا ، لكن هناك فرض عين على كل فرد رأى شرا أن يمنعه ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وقول الرسول الكريم : " من رأى منكرا ، فليغيره بيده فإن لم يستطع ، فليسانه ، فإن لم يستطع فليقلبه " . ولقد ذم القرآن بنى إسرائيل لأنهم أفسدوا المجتمع بترك الأئمين يرتعون فى إثمهم من غير أن ينهوهم فقال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

السفاح والرياء . وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٥) .

النميمة : فى ذلك يقول : ﴿ وَلَا تَطِعْ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مُشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (٦) .

السخيل (٧) : وفى ذلك يقول : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٨) .

(١) البقرة / ٣١ .

(٢) البقرة / ٢٨٦ .

(٣) آل عمران / ١٠٤ .

(٤) المائدة / ٧٨ .

(٥) البقرة / ٢٦٤ .

(٦) القلم / ١٠ ، ١١ .

(٧) سعيد إسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٨٠ .

(٨) آل عمران / ١٨٠ .

تحريم الغش فى الميزان ، الذى جاء فيه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (١) .

ويجمل الرسول ﷺ العمل الأخلاقى فى هذا الحوار الذى دار بينه يوما وبين عدد من أصحابه ، إذ سألهم : " أتدرون من المفلس ؟ " وكانت الإجابة تعكس الفهم الشائع لدى غالبية الناس ، إذ قالوا " المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع " . فقال : " إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار " (٢) .

فهاهنا تأكيد لما ذهبنا إليه ، وهو أن العقيدة ليست فى مجرد أداء الطقوس والرسوم ، وإنما لابد أن يكون العمل أخلاقيا بالدرجة الأولى .

وبدراسة عدد من الكتابات التربوية ، نلمس هذا النوع من الأعمال واضحا ربما أكثر من غيره ، وهذا بطبيعة الحال يتفق مع مجال الكتابة نفسها ، فالتربية كما نعلم تجعل من الأخلاق مناط عملها الرئيسى ، بل لقد كان يرادف بينها من قبل وبين الأخلاق ، ومن ثم كانت تسمى أحيانا بـ " التهذيب " و " الأدب " على أساس أن (التربية) مجالها هو (الأخلاق) أما التعليم فمجاله المعرف والحقائق العلمية المختلفة .

فهذا هو نصير الدين الطوسى (٥٦٧ - ٦٧٢ هـ) يكتب فى كتاب (آداب المتعلمين) :

" وينبغى لطالب العلم أن يكون ذا همة عالية لا يطمع فى أموال الناس ، قال رسول الله ﷺ " إياك والطمع ، فإنه فقر حاضر " ، ولا يبخل بما عنده من المال ، بل ينفق على نفسه وعلى غيره . وكان فى الزمان الأول يتعلمون الحرفة ، ثم يتعلمون العلم حتى لا يطمع فى أموال الناس (٣) . ثم يقول فى موضع آخر : " ينبغى أن يكون صاحب العلم مشفقاً ناصحاً وغير حاسد ، فالحسد يضر ولا ينفع " .

(١) الأعراف / ٨٥ .

(٢) رواه مسلم ، رياض الصالحين ، ص ١١٩ .

(٣) نصير الدين الطوسى : آداب المتعلمين ، نشره أحمد عبد الغفور عطار مع رسائل أخرى فى التربية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٩ .

أما ابن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ) ، فقد كتب ينصح العلماء بما يلي :

‘ معاملة الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار وترك الاستنثار والإنصاف وترك الاستصاف وشكر التفضل ، وإيجاد الراحة والسعى فى قضاء الحاجات وبذل الجاه فى الشفاعات والتلطف بالفقراء ، والتحبيب إلى الجيران والأقرباء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم ‘ (١) .

ثم يطالبه كذلك بأن يظهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ، ويعمره بالأخلاق المرضية ، فمن الأخلاق الرديئة : الغل والحسد والبغى والغضب لغير الله تعالى والغش والكبر .. والعجب والسمة والبخل والخبث والبطر والطمع والخيلاء والمداهنة .. وحب المدح بما لم يفعل ، والعمى عن عيوب النفس والاستغفال عنها بعيوب الخلق ‘ (٢) .

وأكد ابن حجر الهيئى (٩٠٩ - ٩٧٤ هـ) على ضرورة ألا يقوم المعلمون باستغلال الطلاب فى قضاء حوائجهم وعبر عن ذلك بقوله : ‘ لا يجوز لغير الأب حتى الجد للأم أن يستخدم الصغير فى شئ مطلقا ‘ (٣) .

٣- العمل الصوفى : وإذا كنا نصادف ثروة ضخمة من الكتابات التى نجد فيها إلحاحا على ضرورة العمل وأهميته ، وبيننا أن من أنواع العمل ، نوع إنتاجى ونوع أخلاقى ، فإننا لابد من أن نشير هنا إلى نوع آخر ربما احتل وزنا غير قليل فى التراث الإسلامى حول (العمل) وهو ذلك النوع الذى هدف أصحابه منه لا إلى استصلاح أرض ولا إلى تبادل تجارة ولا إلى أداء حرفة من الحرف ، وإنما هو عمل فردى يودى بعيدا عن الناس ، يقوم على المجاهدات والرياضيات التى تعمل على إضعاف صلة الإنسان بمناشط المجتمع وتجعله متفرغا للتعبد فقط .

وأبرز من يمكن أن يعطينا مفهوما عن العمل بالمعنى الصوفى ، هو الغزالى ، فهو يقول ما نصه (٤) : ‘ وأما العمل فلننا نعى به إلا رياضة الشهوات النفسانية ، وضبط الغضب ،

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ، ١٣٥٤ هـ نشره السيد محمد هاشم أندوى ، ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) ابن حجر الهيئى : تحرير المقال ، فى (آداب المتعلمين) ، مرجع سابق ، ص ٣١٣ .

(٤) الغزالى : ميزان العمل ، حققه سليمان دنيا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٢ .

وكسر هذه الصفات لتصير مذعة للعقل غير مستولية عليه ومستخرجة له ، فى ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الأوطار ، فإن من كهر شهوته ، فهو الحر على التحقيق ، بل هو الملك ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك : " ملكى أعظم من ملكك " ، فقال : كيف ؟ فقال : " من أنت عبده ، عبدى " . وأراد به أنه عبد شهواته ، وشهواته صارت مقهورة له ، فعبد الشهوات العاجز عن كسرها وكهرها رقيق وأسير بالطبع ، ولا يزال فى عناء دائم وتعب متواتر ، إن قضى وطره يوما عجز عنه أياما . ثم لا يخلو فى قضائه عن أخطار وعلائق ومشاق ويضطر إلى تقلدها ، فتقليل الشهوات ، تقليل لأسباب الغموم ، ولا سبيل إلى إباطتها إلا بالرياضة والمجاهدة ، وهو المراد بالعمل " .

والهدف من العمل بهذا المعنى هو أن يتزود الإنسان بالمعرفة الإلهية ، وهو لهذا شرط أساسى لابد أن يسبق ويمهد لعملية التعليم بالطريقة الصوفية ، ويشرح الغزالي ذلك بالطريقة القياسية فيقول (١) : " إن تأثير العمل لإزالة ما لا ينبغى .

والسمى فى العلم ، سعى فى تحصيل ما ينبغى .

وإزالة ما لا ينبغى ، شرط لتفريغ المحل لما ينبغى .

والمشروط هو المقصود ، وهو أشرف من الشرط " ، وهو لكى يقرب لنا معنى ذلك ، يسوق مثلا لمن يريد امتيلاذ امرأة بها علة تعوق الحمل ، إذ يجب عليه أن يقوم بخطوتين بالترتيب الآتى : الأولى أن يزيل العلة التى تعوق الحمل . الثانية ، هى أن يودع فيها النطفة ، فالأولى شرط للثانية والثانية هى الغاية المطلوبة .

أما تفصيل هذا النوع من العمل أو كيفية حدوثه ، فيشترط الصوفية على مريده أن يودع حياته الأولى فيقطع صلته بماضيه وما كان فيه من إخوان سوء ، وشهوات نفس وزينة حياة وهو ما يسمونه بـ " مقام التوبة " (٢) .

وإذا كان العلم عادة يركز الاهتمام فى دراسته للملوك الإثماني على ما هو ظاهر منه ، إلا أن الصوفية يؤكدون أن العبرة لا يمكن أن تكون بمجرد الفعل ، لأن هناك من يقيمون الموائد للآخرين ويبذلون لهم المال والخدمات دون أن يعنى ذلك وجود خاصة " الكرم " فى شخصيتهم لأنه من الجائز أنهم إنما يريدون بذلك رياء وتملقا وسعيا لمصلحة أخرى ، فليس

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) أحمد محمود صبحى : الطمفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٧ .

الخلق هو الفعل ، وإنما " الهية التي عنها يصدر الفعل " (١) . ومن هنا كان اهتمامهم بالنوايا والسبوات الداخلية أو ما يسمى بخطر القلوب : " إن كل صفة في القلب يفيض أمرها في الجوارح ، بل إن هذه لا تتحرك إلا بخطر القلوب وإرادتها ، فالقلب هو المتصرف فيها وهي مسخرة له ، فلا يصدر عنها من عمل إلا بإشارته لا تستطيع له خلافا ، ولا عليه تمردا ، ومن ثم فإن القلب هو الذي يجب تصحيحه وتقويمه وحسابه وعتابه " (٢) .

ومن هنا فإننا عندما ننظر في آراء الغزالي التربوية ، فسوف نجده يعكس هذه النظرة بوضوح وجلاء ، فهي إذ يكتب عن آداب المتعلم والمعلم (٣) يضع في مقدمة هذه الآداب " تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومنموم الأوصاف ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف ... " ، وهذه هي الوظيفة الأولى .

أما الوظيفة الثانية ، فيذكر الغزالي عنها (٤) : " أن يقلل علائقه من الاستغفال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن ، فإن العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق ، ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك ، فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة ، كجدول تفرق ماؤه ، فنفتت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ... " .

بل إن الغزالي في تعريفه للتربية يبرز الجانب السلبي الذي يركز الصوفية عليه ، إذ هي من وجهة نظره عملية محو رذئ الصفات من الإنسان ، ويشبه العملية التربوية هنا بفعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزروع (٥) .

وعندما يعرض لصفات المربي الواجب توافرها ، يقول إنه هو من يعرض عن حب الجاه ، وعن حب الدنيا ، وكأنه تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته " إلى سيد المرسلين عليه السلام " ، وكان محسنا رياضة نفسه : من قلة الأكل والقول والنوم وكثرة الصدقة والصوم وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة ، كالصبر والشكر والتوكل

(١) الغزالي : أحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) صبحي : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) الغزالي : أحياء علوم الدين .

(٤) المرجع السابق .

(٥) الغزالي : أيها الولد ، في (آداب المتعلمين) ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

واليقين والسخاوة والقناعة ، وطمأنينة النفس ، والحلم والتواضع ، والعلم والصدق ، والحياء والوفاء .

ونحن إذا وازنا بين هذا النوع من العمل والنوعين السابقين سوف نجد أنه أبعد عن أن يكون موجها سليما للتربية ، إنه إذا كان قد بدأ بنزعة الزهد ، فهذا أمر محمود ، ولكنه انتهى إلى نتائج لا يمكن أن تجعل منه طريقا يصل سالكه إلى أن يكون ذا فاعلية وإيجابية اجتماعية.

ثانيا : أسس ومبادئ العمل

وبدراسة مختلف الكتابات والأقوال التي نجدها في التراث الإسلامي عن العمل ، نخرج بعدد من الأسس والمبادئ التي تتشكل في مجملها قاعدة صلبة يقوم عليها مفهوم العمل في مختلف المجالات سواء كان في التربية التي هي مدار بحثنا أم في غيرها . ويمكن إجمال هذه الأسس والمبادئ في الخطوط العريضة التالية :

١ - التقوى :

والتقوى لغة من الفعل الثلاثي وقى ، والوقاية مصدر بمعنى الحفظ والصيانة . ويقول الزمخشري ^(١) في الكشاف عند تفسير ﴿ الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) ، إن المتقى فى اللغة اسم فاعل ، من قولهم : وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ، والمتقى فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك . المتقى لا يطلق إلا عن خبرة ، ولا يجوز إطلاق العنل إلا على الخير .

ومعنى قول صاحب الكشاف أن المتقى لا يطلق عن خبرة ، أن الحكم بالتقوى على الشخص لا يكون ، إلا إذا صدر منه عمل ، فإذا لم يعمل ، فلا يمكن وصفه بذلك ، وهذا مذهب أساسى فى الحضارة الإسلامية كان طاقة حيوية دفعت بها خطوات كبرى ، حتى إذا ترك أفراد مجتمعاتنا طريق العمل واكتفوا بالعبادة باعتبار أنها جوهر العقيدة ، وقصروا المؤمن على من يصلى ويصوم ويزكى ويحج وهى العبادة المفروضة ، وغفلوا عن أن العبادة تنصرف أيضا إلى الأعمال التى يقوم بها المرء لكسب معاشه كان ما عنيما من تأخر وضعف ^(٣) .

^(١) الزمخشري : تفسير الكشاف ، دار الكتاب اللبنى ، بيروت . دت ج ١ ص ٣٧ .

^(٢) البقرة / ١ - ٢ .

^(٣) أحمد فؤاد الأوانى : القيم الروحية فى الإسلام ، سلسلة دراسات فى الإسلام ، العدد (٢١) ، بصنرها للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٠١ .

وإذا أردنا أن نعرف قيام المفهوم الإسلامي للعمل على أساس ' التقوى ' فعلينا أن ننظر إلى شخص يسرق ثم يبنى بما سرقه مستشفى أو مدرسة . إن هذا عمل غير مقبول ، وفي ذلك قصة نزلت فيها آيات في سورة التوبة وهي : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسَ عَلَى النَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

والذي يروى في ذلك ، أن أثنى عشر من المنافقين بنوا مسجدا مضارة لأهل مسجد قباء بأمر أبي عامر الراهب ليكون معقلا له يقدم فيه من يأتي عنده ، حيث كان قد ذهب ليأتي بجنود من عند قيصر لقتال النبي عليه السلام ، كما أنهم كانوا يبعثون طريق المؤمنين باجتذاب الذين يصلون بمسجد قباء ، ثم زعموا أنهم يريدون ببناء مسجدهم الرفق بالمسكين في المطر والحر والتوسعة على الناس وسألوا النبي أن يصلى فيه ، فنزل الوحي عليه بعدم الاستجابة .

٢- العلم :

تمتلي الآثار الفكرية الإسلامية بالعديد من الشواهد المؤكدة لتعظيم العلم والحث على طلبه والدعوة إلى نشره بين الناس لسنا في مقام يسمح لنا بالإفاضة فيها ، وإنما نكتفي هنا فقط بالإشارة إلى نماذج قليلة منها لبيان كيف أن المفهوم الإسلامي للعمل يقتضى ربطه بالعلم ، فهناك هذه الآية الكريمة التي ذكر فيها الله سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقوله ﴿ يَرْقِعَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، وقوله ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾ تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم . كذلك قال الرسول ﷺ " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده " ، وعن علي بن أبي طالب أنه قال لكميل " يا كميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال أبو الأسود الدؤلي : ليس أعز من العلم . الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك " (٢) .

(١) التوبة / ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٦٥ .

وفى مقدمة كتابه " اقتضاء العلم العمل " ، يشبه الخطيب البغدادي العلاقة بين العلم والعمل بأن العلم شجرة والعمل ثمرة^(١) ، وتشبيه آخر يذهب فيه إلى أن " العلم والد والعمل مولود " . وعلى هذا فهو ينصح : " فلا تأمن بالعمل مادمت مستوحشا من العلم ... ولكن اجمع بينهما ، وإن قل نصيبك منهما ... " . ويفيض البغدادي في الحديث عن تلك العروة الوثقى بينهما فيقول :

" والامام يراد للعمل ، كما يراد (للنجاة ، فإذا كان) العمل قاصرا عن العلم ، كان العلم كلا على العالم ، ونعوذ بالله من (علم عاد وكلا وأورث ذلا وصغارا ، وصار فى رقبته صاحبه غلا) . قال بعض الحكماء : العلم خادم العمل ، والعمل غاية العلم ، فلو لا العمل لم يطلب علم . ولو لا العلم لم يطلب عمل ، ولأن أدعى الحق جهلا به ، أحب إلى " من أن أدعه زهدا فيه " (٢) .

وعقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته عنوانه بـ " فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع " . وهو إذ يجعل من التعليم صنعة بمعنى (مهنة) ، يذكر أنه بذلك لا يتم إلا " بحصول ملكة فى الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله . وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحنق فى ذلك الفن المتناول حاصلًا .. " (٣) .

٣- حرية الإرادة :

فإذا كان " العمل " مجرد حركة ونشاط كما نرى عند سائر الكائنات الحية ، لما أثبتنا ضرورة توافر الحرية للإرادة الإنسانية ، لكن العمل فى المفهوم الإسلامى متعدد الزوايا مختلف الجوانب ، وهو على تعدده واختلافه " إنسانى " بالدرجة الأولى . و " إنسانيته " هذه هى التى توجب أن تكون إرادة القائم بالعمل حرة .. حرة فى اختيار الباعث والدافع ، حرة فى طريقة التنفيذ ، حرة فى اختيار نوع العمل ، حرة فى إتمام وتحمل نتائجه .

ونحدد مفهوم الإرادة ، فنقول إنها لا تعنى مجرد الرغبة والميل ، ولا هى تقف عند التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة ، حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه فى تصميم مهما تكن العوائق والموانع . ومبدأ (الأعمال بالنيات) لا يعنى الإلزام

(١) الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم والعمل ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ ، ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٣) ابن خلدون ، ص ٤٣٠ .

بالمسئولية على مجرد النية ، بل بقدر سبق العمد ، ويفرق بين وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه (١) .

وفى دراسة تحليلية للدكتورة عائشة عبد الرحمن لاستعمال ' الإرادة ' فى القرآن ، وجدت أنها قد جاءت فى نحو ١٤٠ موضعا ، كلها بصيغة الفعل الماضى أو المضارع فحسب ولم يستعملها قط بصيغة المصدر أو أى صفة من مشتقاته ، وإنما هى فعل لا غير . ولا يستعمل الفعل منها بصيغة الأمر فى أى موضع من القرآن كله ، وهذا يعنى أنه لا يعرف الإرادة إلا عملا وفعلًا فليست عنده من المجردات الذهنية التى تختص بها الأسماء ولا هى الصفات التى تطلق على الأمتجار أو تضاف إليها . فكان العبرة فى الإرادة بالفعل لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء (٢) .

وما معنى هذا ؟ معناه أن الإرادة لو كانت قد وردت بأمر لانتفى بذلك جوهر الإرادة من حيث هى مشيئة واختيار .

والدارس لفكر المعتزلة يجد أنها من أكبر الفرق الفكرية الإسلامية وأخطرها نزوعا إلى القول بحرية الإرادة وأن ذلك ضرورى للملوك الإنسانى ، فالحرية يجب أن تفترض كمبدأ لإمكان أداء الواجبات وقيام الوعد والوعيد ، وإذا افترضت على الإنسان التكليف ، فإن الحرية صفة تحمل على الإرادة لإمكان أداء التكليف على النحو الذى وجهت عليه .

ولموقف المعتزلة نظير فى الفلسفة الحديثة ، فلدى كانط نحن لسنا أحرارا فى مجال التجربة حيث خضوع حواسنا تماما للعالم الخارجى وتبعية علمنا لموضوعاته ، ولكن فى مجال ' الأشياء فى ذاتها ' فنحن أحرار ولا بد من استقلال الإرادة لما يلزم عن ذلك من إمكان الأخلاق . وعلى نفس النمط ، يسبقه المعتزلة برأيهم : لسنا أحرارا فيما لا تعلق للتكليف به كبده وجودنا أو نهايتنا أو صلة حواسنا بالمدركات وما نجده من طعوم وروائح ومسموعات ، بل كل ما فى العالم من موجودات بفعل خلقه الله للأشياء وما طبعها عليه ، ولكن فيما يتعلق بالتكليف فهذا يقتضى التسليم بإرادة حرة (٣) .

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإيمان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٠٦ .

(٢) لمرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) صبوحى : الفلسفة الأخلاقية ، ص ١٦٣ .

٤ - الدافعية :

والعمل هو تجسيد فعلى لفكرة ولرأى ، ومن ثم فهو الطرف الخارجى لخيط يبدأ غالبا من داخل الإنسان ، وهذا الجزء الداخلى هو أغلب الأحوال الدافع أو الباعث لإجراء العمل ، وإن كان هذا ليس شرطا دائما ، ففى بعض الأحوال يكون الدافع من خارج .

وفى تلك الدراسة التحليلية القيمة التى قام بها الدكتور سيد عثمان لكتاب برهان الإسلام الزرنوجى المتوفى سنة (٥٩١ هـ - ١١٩٥ م) (تعليم المتعلم طريق التعلم) ترى الاهتمام بالدافعية فى العمل والسلوك ، وهو ما يسميه المحلل بـ ' دافعية نشاط ' (١) إذ يذكر أن ما يقوم به المتعلم من نشاط أو أداء أو عمل أو ممارسة هى فى ذاتها مودية دورا دافعا ، فليس السلوك منفصلا عن الأفعال وليس الأداء منفصلا عن الدافعية ، ومن هنا كلن إصرار الزرنوجى فى نصحه للمتعم أن يفرق بين الهمة والجد ، وأن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة وأن يكون درسه وتكراره ، ' بقوة ونشاط ' .

ومن وضوح إدراكه للعلاقة بين الفعل والأفعال ، بين السلوك والدافعية ذكره لن التقاب على الكسل - وهو هبوط فى الأداء وفى الدافعية - يشارك فيه الجد والمواظبة ، أى لن استنهاض الدافعية يحدث بزيادة حيوية وإيقاع السلوك الظاهرى . وكما أن هذه الزيادة فى حيوية وإيقاع السلوك تؤثر انفعاليا ، فإنها تؤثر معرفيا فى الدافعية (٢) .

ومن الأدلة الأخرى على وضوح هذا الإدراك عند الزرنوجى رأيه فى دفع الملل بتتويج النشاط فيقول : ' وينبغى لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته ، فإذا مل من علم يشتغل بعلم آخر ' .

أما ابن جماعة فقد ألح على المعلم فى أن يلجأ فى تعليمه إلى ' الترغيب ' حتى يضمن إقبال المتعلم على التعلم ، ويقول فى ذلك : ' أن يرغب فى العلم وطلبه فى أكثر الأوقات بذكر ما أعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء وعلى منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء أو نحو ذلك مما ورد فى فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار والإشعار ، ويرغبه مع ذلك بتدرج على ما يعين على تحصيله من الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعليق بها ' (٣) .

(١) سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٨ .

٥- الاستعداد والقدرة :

وإذا كان لابد من العلم قبل العمل ، وأن يكون العمل نتيجة لدافعية واضحة ، فإن هذا وذلك وغيره قد لا يكون مؤديا إلى العمل الفعلى ما لم يتوافر لدى الإنسان " الاستعداد " ، وما لم تكن لديه " القدرة " على هذا العمل .

فهذا ابن خلدون يشرح الطريقة التى يجدها أكثر من غيرها فاعلية فى إنجاز عملية التعليم ويقسمها إلى مراحل ثلاث ، لكل مرحلة هدفها ووسيلة تنفيذها ، وأن من المسخف حقا أن يلقى المعلم بكب ما يريد تعليمه للمتعم دفعة واحدة ، بل لابد من التدرج والابتداء بالخطوة الأولى الأسهل ، ثم الانتقال إلى الخطوة الثانية ، وتكون أكثر من الأولى صعوبة وهكذا ... وهو إذ يفصل طريقته بهذه الصورة يبينها على ذلك المبدأ الهام ، مبدأ الاستعداد والقدرة ، فيقول : " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقليلًا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه " (١) .

ثم هو إذ ينتقد الطرق الأخرى التى يلجأ إليها بعض المعلمين من البدء بالمسائل " المقفلة " من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه فى حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ... " يؤكد أن عمل هذا " قبل أن يستعد (الطالب) لفهمها .. كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكامل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه ، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم " (٢) .

وإلى نفس المعنى ذهب ابن جماعة فى شرحه لما ينبغى أن يفعله المعلم مع تلاميذه ، إذ نصحه بالألا " يلقى إليه ما لم يتأهل له ، لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه " . ولكن ماذا تكون استجابة المعلم إذ ألقى إليه التلميذ بسؤال عن موضوع يعرف المعلم أنه فوق مستوى الطالب ويعلو قوة استعداده ؟ يجيب ابن جماعة " فإن سأله الطالب شيئا من ذلك لم يجبه ، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه ، وإن منعه إياه لشفقة عليه ولطف به لا بخلا عليه ، ثم يرغبه عند ذلك فى الاجتهاد والتحصيل ليتأهل لذلك وغيره ... " (٣) .

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢٤ .

(٣) ابن جماعة ، ص ٥١ - ٥٢ .

وفى القرآن الكريم آيات متعددة تجلى هذا المبدأ مثل :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) .

﴿ لَا تَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (٣) .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٤) .

وينصح الغزالي المعلم بأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يتخبط عليه اقتداءً فى ذلك بالرسول ﷺ الذى نقل عنه قوله : " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم " ، فليبدئ، إليه الحقيقة إذا علم أنه مستقل بفهمها : ولذلك قيل : كل لكل عبد بـمـعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت الميعاد * (٥) .

٦- الفروق الفردية :

وإذا كان من المهم أن يراعى فى العمل استعداد الفرد وقدرته ، فإن مما يكمل هذا المبدأ مبدأ آخر هو تفاوت الناس فى الاستعدادات والقدرات .

إن هذه القاعدة فى تفاوت قدرة الناس ومواهبهم ، لم يستطع أى نظام أن يخالفها أو ينكرها ، بل إن المساواة التامة بين الأفراد وعدم التفاوت أو على الأقل التقارب الشديد فى المقدره وبالتالي عدم التفاوت فى الأعمال وعدم التخصص هو من سمات المجتمعات البدائية ، وعلى العكس من ذلك ، أن تنوع الاختصاصات وكثرة التفاوت نتيجة لذلك من سمات المجتمعات الراقية (٦) .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (٧)

، أى أن الله خلق الناس متفاوتين يقدم كل واحد منهم من الأعمال ما يحتاج إليه الآخر ، كذلك

(١) البقرة / ٢٨٦ .

(٢) البقرة / ٢٣٣ .

(٣) الطلاق / ٧ .

(٤) التغابن / ١٦ .

(٥) الغزالي : إحياء علوم الدين .

(٦) محمد المبارك : نظام الإسلام ، الاقتصاد ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٤ .

(٧) الزخرف / ٣٢ .

الأخر بالمقابل ، بمعنى أن كل واحد بالنسبة إلى غيره مسخر على وجه التبادل والتعاون ، فأهل الحرف مثلا كالخباز والنجار والحداد يسخرون المعلم لتعليم أولادهم ، والمعلم يسخرهم لما يحتاج إليه من خبز أو نجارة أو حدادة ، وكذلك الطبيب والمهندس والمزارع والبناء والموظف وسائر أصحاب الأعمال يسخر بعضهم بعضا فيما يتقنونه ويحسنونه ويقدمونه من أعمال وخدمات بالتقابل والتبادل .

وبهذا المعنى ، فسر الزمخشري والرازي وابن كثير وغيرهم هذه الآية الكريمة : فقد قال الزمخشري " ليرتفق الناس بعضهم ببعض " . وقال ابن كثير " قيل معناه ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا " . وقال الرازى : " جعل تعالى ذكره بعضا لبعض سببا فى المعاش فى الدنيا " (١) .

ومن هنا نجد مفكرا مثل الغزالي ، يرى وجوب الوقوف على درجة الإصابة ونوع المرض وسن المريض فى حالة تأديب الأطفال ورياضتهم ، لأن المعلم كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، قتل أكثرهم وأمات قلوبهم ، ويؤكد الغزالي أن من الأطفال من يتميز بالحياء والحساسية ، فينبغى ألا يهمل مثل هذا الصبى ، وإنما يستعان على تأديبه بحياته وتميزه .. وإذا ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ، فيلزم أن يكرم عليه ويجازى عليه ويمدح بين الناس . أما إذا أخطأ فى بعض الأحيان مرة واحدة ، فالأفضل أن يتغافل عنه ولا يهتك سره ولا يكشفه ، فإذا أعاد ، فينبغى أن يعاقب سرا (٢) .

٧- الأخلاقية :

والمراد بالأخلاقية هنا هى ما يعبر عنه فى الأدب الإسلامى بـ " العمل الطيب " ويقابله " العمل الخبيث " ، وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تدل على وجوب التمييز بين الأعمال على هذا الأساس :

- ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَكَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ (٤) .

(١) المبارك ، ص ٤٥ .

(٢) أحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

(٣) آل عمران / ١٧٩ .

(٤) النساء / ٢ .

- ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ (١) .

- ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) .

الأعمال إذن قد تكون طيبة ، وقد تكون خبيثة ، ولكن الإسلام يأمر بالطيب ، وينهى عن الخبيث فهذا هو القرآن يقول فيه سبحانه وتعالى :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (٣) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٤) .

فالحكم على العمل أصالح أم غير صالح ، ومعرفة قيمته ، يرجع إلى مراعاة المبادئ الأخلاقية التي أمر بها الشارع ، من الابتعاد عن الغش والاحتيال والخديعة والمرفقة وما إلى ذلك من مساوئ تنقص من قيمة العمل حتى لو أعجبنا (٥) .

من أجل ذلك نجد ابن جماعة يوجب على المعلم دوام مراقبة الله تعالى جهرا ومرا ، والمحافظة على خوفه من جميع حركاته وأقواله وأفعاله ، على أساس أن ذلك من شأنه أن يكون زاجرا له عن الإتيان بالمشين من الأفعال ، واستدل في ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . واستشهد أيضا بقول الشافعي : " وليس العلم ما حفظ ، العلم ما نفع ، ومن ذلك دوام المسكينة والوقار والخشوع والتواضع والخشوع " (٦) .

كذلك ينصحه " أن يتنزّه عن دنئ المكاسب ورنيلها طبعاً ، وعن مكروهاها عادة وشرعا " (٧) ، وكذلك عليه أن يتجنب مواضع التهم وإن بعدت ، ولا يفعل شيئا يتضمن نقص مروءة أو ما يستكر ظاهرا وإن كان جائزا باطنا ، فإنه يعرض نفسه للتهمة ويحرضه للوقية ، ويوقع الناس في الظنون المكروهة وتأتيهم الوقية " .

(١) المائدة / ١٠٠ .

(٢) الأنفال / ٣٧ .

(٣) البقرة / ٢٦٧ .

(٤) المائدة / ٨٧ .

(٥) الأهلواني ، القيم الروحية ، ص ٩٦ .

(٦) تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٥ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٩ .

وعند اختيار الطالب للمعلم الذى سيتلقى منه العلم ، يوجب ابن جماعة مراعاة الجانب الأخلاقى وعدم الاكتفاء بالجانب المعرفى فقط ، فيقول : " إنه ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه ، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفتته وظهرت مروعته ، وعرفت عفته واشتهرت صيانه .. ولا يرغب الطالب فى زيادة العلم مع نقص فى ورع أو دين أو عدم خلق جميل ... " (١) .

٨- الإتيان :

والإتيان هو المعيار الذى نزن به قيمة العمل من حيث السمو والضعفة ، ونحن نعلم أن الناس ليسوا سواء فى أداء أعمالهم ، إذ بعضهم يرتفع بعمله ، فيرفعه عمله ، وبعضهم الآخر يهمل فيه ويخرجه ناقصا أو معييا ، وليس من الضروري أن يكون ذلك عن قصد ، بل كثيرا ما يكون عن إهمال وسوء تعليم ولا شك إن فى أن قيمة العمل تتدرج فى سلم من حيث الإتيان والكمال ، والنقص والإهمال ولكن العمل المتقن الذى يحسن صاحبه عمله وإخراجه يكون كالجوهرة تتألق فتبهر الأبصار .

ومن هنا نجد الرسول ﷺ يدعو إلى الإحسان فى كل عمل ، وهو المعنى المرادف لمعنى الإتيان ، فما حفظه شداد بن أوس عن الرسول قال : " إن الله كتب الإحسان على كل شئ ، فإذا قتلتم ، فأحسنوا القتل ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " . فإذا كان الإحسان مطلوبا فى الأعمال التى لا تترتب عليها نتائج مؤثرة فى الجماعة ، فأحرى به أن يطلب فى الأعمال ذات القيمة الاجتماعية ، فالقتل فى الجهاد فى سبيل الله والذبح تنتهى آثارهما أو تكاد بإتمام إنجازهما ، ومع هذا لا بد من الإحسان فيهما - رحمة من ناحية ، وإكسابا للإنسان عادة الإتيان من ناحية أخرى (٢) .

ويعلمنا الرسول ﷺ الإتيان فى موقف آخر ، فبعد أن وارى ابنه إبراهيم التراب ، صلى عليه ، وسوى عليه القبر بيده ، ورش فوق القبر الماء ، ووضع عليه علامة ثم قال : " إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه " (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) سيد أحمد عثمان : المسئولية الاجتماعية فى الإسلام ، الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤ .

(٣) المرجع السابق .

أما أصداء ذلك في فكرنا التربوي ، فهو يتضح لنا من دراسة عدد من النصوص الهامة في هذا الشأن ، فهذا هو الغزالي ينصح طالب العلم " ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى في الترتيب ويبتدئ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه " (١) . فهو هنا يرشد إلى الطريقة المليمة المؤدية إلى الإتيان ، وهي " التدرج " أو ما يسميه هو " الترتيب " . كما أنه يطالب المتعلم بالألا ينتقل من جانب من المعرفة إلى آخر قبل أن يتقن الأول ، فيقول : " ألا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً ، وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج ، قال الله تعالى : " الذين آتيناها الكتاب يتلونه حق تلاوته " ، أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً (٢) .

وإلى نفس المعنى ذهب ابن خلدون بمطالبته المعلم ألا " يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه (يقصد التلميذ) من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره ، لأن المتعلم إذا حصل على ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم ، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وأطمس فكره وينس من التحصيل وهجر العلم " (٣) . والملكة التي يشير إليها ابن خلدون هنا هي المصطلح الذي يؤدي المعنى الذي نفهمه من مصطلح " المهارة " ، وبالطبع لا يمكن أن تتكون مهارة إلا بالإتيان .

أما نصر الدين الطوسي ، فيؤكد على ثلاثة أركان لا قوام للإتيان إلا بها وهي " الجد " ، " المواظبة " ، و " الهمة " ، فيقول راسماً الخطوط العريضة التي ينبغى أن يملكها المستعلم : " ثم لا بد له من الجد والمواظبة والملازمة " ، وأيضاً يقول : " ولا بد لطالب العلم من المواظبة على الدرس " ، وكذلك " ولا بد لطالب العلم من الهمة العالية في العلم " . ويؤكد أنه " إذا كانت له إلا القليل من العلم وينبغي أن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في فضائل العلوم ودقائقها " (٤) .

(١) ميزان العمل ، ص ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(٣) مقامة ابن خلدون ، ص ٥٣٤ .

(٤) في أدب المتعلمين ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

٩- الجزاء :

وكما أننا نعلم أن من سنن الكون ارتباط الأسباب بالمسببات ، أو كما يقول أهل المنطق ، ارتباط العلة بمعلولها وجودا وعدما وتغيرا نسبيا ، فإننا نجد نفس الشيء بالنسبة للعمل ، إذ أنه هنا يعتبر بمثابة السبب الذي تكون له نتيجة ، أو العلة التي يكون لها معلولها ، والنتيجة هنا ، هي ذات جانبيين ، جانب موضوعي وجانب ذاتي ، أما الموضوعي فهو يكمن في التغيير الذي يحدث نتيجة العمل والنشاط أو هو الثمرة الواقعية المشخصة للعمل ، أما الجانب الذاتي ، فهو ما يعود على القائم بالعمل من نتائج سواء كانت نتائج معنوية - أم مادية ، والمعنوية تلك التي تتمثل فيما قد يشعر به العامل من سعادة أو ما يلقاه من تشجيع وتأييد وامتحان وتقدير ، والمادية تتمثل في أغلب الأحوال في (أجر) يلقاه بالإضافة طبعا في ما يكسبه القائم من مزيد من المران والصقل والعديد من الجوانب الشخصية الأخرى .

والعمل في الإسلام منه ما هو فرض عين ، ومنه ما هو فرض كفاية ، والأعمال التي هي فرض عين هي تلك التي تدخل في باب العبادات مثل الصلاة والصيام وما أشبه ، ولا بد لكل مسلم من القيام بها ، أما تلك التي هي فرض كفاية ، فمثل المهن والحرف وسائر الوظائف التي تشتمل عليها الأمور المعاشية . وهنا يكفي أن تقوم طائفة بالتدريس مثلا ، وكذلك في كل عمل ، ولا ضرورة لباقي الفئات والطوائف أن تقوم به . وهذا وذلك من هذه الأعمال ينبه الله سبحانه وتعالى إلى أن هناك جزاء عليها ، والجزاء الذي يوعد به الإتيان هو جزاء دنيوي وآخر أخروي ، فمن أمثلة الجزاء الدنيوي ، ما يذكره الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) و ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) . وأما ترتب الخير على الفعل في الآخرة ، فمثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) . وقوله تعالى : : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (٤) .

(١) الطلاق / ٣ .

(٢) فصلت / ٣٤ .

(٣) غافر / ٤٠ .

(٤) الكهف / ١٠٧ .

وقد أظهر ابن جماعة في آرائه التربوية وعيا بضرورة الربط بين العمل والجزاء ، وأن هذا من شأنه أن يشجع الطالب المصيب أن تثبت لديه مهارات العمل الجيد ، وأن يتعلم الطالب المخطئ أوجه الخطأ فيتلافها فيما بعد ، فقال بعد أن طالب المعلم بالقيام بعملية تقويم للتلاميذ بسؤالهم عما تلقوه " فمن رآه مصيبا في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب ، شكره وأثنى عليه بين أصحابه ، ليعتبه وإياهم على الاجتهاد في طلب الأرياد ، ومن رآه مقصرا ولم يخف نفوره ، عنفه على قصوره وحرصه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطا والشكر انبساطا ... " (١) .

وفي موضع آخر يسوق ابن جماعة رأيا أكثر صوابا ، وخاصة بالنسبة للتلميذ لا المخطئ ، فيقول مطالبيا المعلم " أن يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديبهم وأخلاقهم بلطنا وظاهرا ، فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه أو مما يؤدي إلى فساد حال أو ترك اشتغال أو إساءة أدب في حق الشيخ أو غيره أو كثرة كلام بغير توجيه وفائدة ، أو حرص على كثرة الكلام أو معاشرته من لا تليق عشرته أو غير ذلك .. عرض الشيخ بالنهي عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به ولا مهين له ، فإن لم ينته ، نهاه عن ذلك سرا ، ويكتفى بالإشارة مع من يكتفى بها ، فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهرا ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ويتأدب به كل سامع ، فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع ولا سيما إذا خاف على بعض رفقاته وأصحابه من الطلبة موافقته " (٢) .

١٠ - التطبيق :

إن الدين هو فعل الواجبات لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٣) ، بل لقد أشار الرسول إلى الفصل العنق مبينا مخالفته للإيمان : لا إيمان لمن لا أمانة له - الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأنها إمطة الأذى عن الطريق - لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " (٤) ..

(١) تذكرة السامع والمنكلم ، ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) البينة / ٥ .

(٤) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، ص ١١١ .

ولا تكاد آية فى القرآن يذكر فيها وعد للذين آمنوا إلا وقد اقترن بها * وعملوا الصالحات * ، ويقترن العمل الصالح بالإيمان فى أكثر من خمسين آية من القرآن ، بل لم يذكر * الذين آمنوا * دون اقتران بـ * وعملوا الصالحات * إلا فى موضع التشريع أمرا أو نهيا ، وذلك كما ترى فى قوله تعالى : * كتب عليكم الصيام * و * اتقوا الله * و * كتب عليكم القصاص * ، فدل اقتران العمل الصالح بالإيمان بصدد آيات الوعد على أن الإيمان الذى يستحق به الإمتنان التوفيق هو إيمان مقيد مقرون بالعمل الصالح ، أما الإيمان الذى لم يقرن بالعمل الصالح ، فلا توفيق لصاحبه (١) .

كذلك اقترنت الفرائض الدينية بصالح الأعمال ، فإقامة الصلاة تبعها فى أكثر من آية إيتاء الزكاة ، كما اشترط لصحة الصيام زكاة الفطر . وكان التكفير عن السيئات أو فعل المحظورات يقتضى الإحسان كتحرير رقبة أو إطعام مساكين ، فدل ذلك كله على أن الإيمان يقتضى العمل الصالح ويحتمه .

ويتساءل الخطيب البغدادي : * وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب ؟ وهل المنهوم بها إلا كالحريرى الجشع عليهما ، وهل المغرم بحبها إلا ككنازهما ؟ وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها ، وكذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها * (٢) .

ومن الآثار التى تساعد على أهمية التطبيق ما يروى عن الرسول ﷺ * لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه * (٣) .

وعن أبى الدرداء أنه قال : * إنك لن تكون عالما حتى تكون متعلما ، ولن تكون متعلما حتى تكون بما علمت عاملا * (٤) .

ومن هنا جعل الغزالي العمل بما يعلم واجبا أساسيا لا تتم شروط التعليم إلا به ، معبرا عن ذلك بقوله (٥) : * فلا يكذب مقاله بحاله ، فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد * ، وهو فى ذلك يبنى رأيه على قضية منطقية تقول إن العمل مدرك بالبصر ، والعلم بالبصيرة ،

(١) الزمخشري : الكشاف ، تفسير آية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم ليمتدحهم * ج ١ ، ص ٤١٧ .

(٢) اقتضاء العلم والعمل ، ص ١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٥) ميزان العمل ، ص ٣٧٠ .

وأصحاب الأبصار أكبر من أرباب البصائر * فلتنك عنايته بتركية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره * . ويستعين الغزالي بتشبيهه طريف عندما يقول : * المتعظ من الواعظ يجرى مجرى الطين من النقش والظل من العود ، وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، وكيف يستوى الظل والعود أعوج ؟ * . ثم يستشهد بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ثالثا - مظاهر الاتجاه العملي

١- المعرفة المكتسبة :

تعتبر نظرية المعرفة من أهم المجالات الفلسفية التي دارت على أرضها رحي العديد من الجولات الفكرية لمختلف الفلاسفة والمفكرين شرقا وغربا ، قديما ووسيطا وحديثا ، والذين عالجوها من أبواب مختلفة ، مثل مصدرها وطبيعتها ومجالاتها ونتائجها وهكذا . وإذا ثبت هنا أننا نقتفى أثر القول باكتساب المعرفة وأهمية الحواس في عملية الاكتساب ، فإننا لا نقصد بأى حال من الأحوال أن نثبت حكما عاما شاملا على التراث الفكرى التربوى الإسلامى ، بأنه كان فى هذا الجانب ولم يكن فى اتجاه جانب آخر ، وإنما نحن فقط نذهب إلى أنه قد كانت هناك آراء وأقوال تؤمن وتؤكد أن المعرفة إن لم تكن كلها ، فعلى الأقل جزء منها نحصل عليه بالخبرة والتجربة وأنها ليست بالكامل فطرية ، وأن النتيجة المترتبة على ذلك هى أيضا وجود اتجاه يؤمن بأهمية الحواس وضرورتها فى اكتساب المعرفة ، وذلك كمظهر من مظاهر الاتجاه العملى فى تراثنا الفكرى .

فاستقرأ القرآن الكريم يؤكد لنا أنه يذهب إلى أن الإنسان عندما يولد ، يكون خاليا من المعارف إذ يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (٢) . وفى مكان آخر يذكر : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (٣) . ثم بعد أن يقرر أن الإنسان قد خلق بلا علم ولا معرفة ، يذهب إلى أنه قد زود بعدد من الحواس تمكنه من تجاوز هذه الحالة والانتقال إلى حالة العرفان والعلم ، ومن هنا نجدده يتبع النص الأول

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

(٢) النحل / ٧٨ .

(٣) الإنسان / ١ .

بقوله : " ... وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " . وكذلك فى النص الثانى يكمله بقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

وهناك عديد من الآيات التى تتناول كل حاسة وبيان أن لها دورها فى اكتساب المعرفة (١) . فمن ذلك حاسة اللمس ، إذ جاء فيها ما نصه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢) . أما الشم ، فقد جاء فيه ﴿ وَكَمَا فَصَّلْتَ الْعَيْرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَِّّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْقَهُونَ ﴾ (٣) . ومما يؤكد أن السمع من الأدوات التى تؤدى إلى التعليم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤) . أما البصر فقد طلب القرآن فى كثير من الآيات أن يستخدمه الإنسان كى يصل إلى المعرفة اليقينية ، مثل قوله ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٥) . وقال ﴿ وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٦) .

ولقد سفه القرآن هؤلاء الذين يعطلون عمل أدوات المعرفة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٧) . بل لقد طالب بطريقة مباشرة بالأنتبغ فى حياتنا ما ليس لنا به علم حيث أن لدينا الأدوات التى تمكننا من المعرفة ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنَهُ مَسْنُورًا ﴾ (٨) .

ويجعل ابن سينا " المحسوسات " مصدرا من مصادر المعرفة ، فيقول ، إن قولنا - مثلا - بأن الثلج بارد لا يتم إلا إذا اقترن العقل بالحواس " (٩) .

(١) عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية فى الإسلام ، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، مرس اللبان (مصر) ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) الأنعام / ٧ .

(٣) يوسف / ٩٤ .

(٤) المائدة / ٨٣ .

(٥) يونس / ١٠١ .

(٦) الأعراف / ١٨٥ .

(٧) الأعراف / ١٧٩ .

(٨) الإسراء / ٣٦ .

(٩) محمد عاطف العرافى : ثورة العقل فى الفلسفة العربية . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٥٠ .

كذلك يستوقفنا إصرار فريق مثل "إخوان الصفا" على النظرة العقلية الحسية فيقولون في البراهين العقلية ومنزلتها : واعلم أن البراهين هي ميزان العقول ، كما أن الكيل والذرع والشاهين من موازين الحواس ، وكما أن الناس إذا اختلفوا في حرز شئ وتخمينه من الأثماء المحسوسة رجعوا عند ذلك إلى دليل وبرهان وما ينتج من المقدمات الضرورية ^(١) . وإذا كان هذا النص يظهرنا على التعاون بين العقل والحواس إلا أن إخوان الصفا يذهبون إلى ما هو أكثر تجريبية في موضع آخر ، إذ يؤكدون أن الحواس هي وسيلة الإدراك حتى بالنسبة لعالم المعقولات ، فيقولون : " نبدأ أولاً بذكر القوى الحساسة الخمس إذ كانت هي أول قوى النفس التي ينال بها الإنسان العلوم والمعارف ... " ^(٢) ، ثم يباغون الذروة بتقريرهم الصفة الكسبية للمعرفة عندما يقولون : " واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق أبيض نقي لم يكتب منه شئ ... " ^(٣) .

وبالطبع فإن الإيمان بكسبية المعرفة يعطى التربية مددا ضخما ، إذ ستكون هي الممسولة عن القيام بدور إكساب الإنسان المعارف الجديدة والأمر على العكس من ذلك في القول بفطريتها . وإذا كان للتربية من دور هنا فصورف يكون دورا ثانويا لا يتعدى الكشف والتنظيم ، أما في الحالة الأولى ، فهناك فرص الإبداع والابتكار .

٢- نبذ التواكل :

ومن أظهر مظاهر الاتجاه العملي في تراثنا ، أن ليس في القرآن لفظ التواكل بأى صيغة من الصيغ على الإطلاق ، وإنما الذى فيه ، توكل على الله مسبوق بالعزم ومشروط به : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ^(٤) .

ولقد ظن قوم أن التوكل لا يستلزم الأخذ بالأسباب ، ومن هؤلاء ، الأعرابي الذى ترك ناقلته طليقة خارج المسجد ، فقال له الرسول ﷺ : " اعقلها وتوكل " .

ومنهم من يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ^(٥)

(١) زكى نجيب محمود : المعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى ، دار الشروق بيروت ، د.ت ، ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) آداب المتطمين ، ص ٥٧ .

(٤) آل عمران / ١٥٩ .

(٥) هود / ٦ .

فيقول مالى وللمسعى والكد فى طلب الرزق ، وقد كفل الله لى نصيبى منه ، فهو يأتينى به حيث أكون ، ولو لم أنقل قدما أو ابذل جهدا فى سبيل تحصيله . ولو تكبر قوله تعالى لعلم أن الله كفل الرزق لكل " دابة " أى لكل مخلوق يدب على الأرض ، فهو يسعى فى طلب رزقه ، يعمل لتحصيل معاشه ، فلا يعود من مسعيه إلا وقد أصاب رزقه وجنى ثمرة عمله (١) . ويؤكد هذا المعنى قول الرسول : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خصاصا (٢) ، وتروح بطانا (٣) " .

لم يقل الرسول أن الله يرزق الطير وهى قابعة فى أوكارها ، ولكنها تغادر أوكارها فى الصباح جائعة خاوية ، فتطلق وهى تضرب بأجنحتها هنا وهناك بحثا عن ثمار الأشجار ومسابل الحقول وحشرات الأرض والماء .. وما تزال تجمع من هذا وذاك حتى تمتلئ حواصلها ، فتعود إلى أعشاشها وقد أصابت رزقها ورزق أفراخها الصغار .

ويؤكد هذا أيضا أن الرسول أبى أن يعطى سائلا سألته ، ودله على عمل يرتقى منه ، وفى هذا يقول أنس : أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ يسأله ، فقال : أما فى بيتك شئ ؟ قال : بلى جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه (٤) ، وقعب نشرب فيه الماء . قال : انتنى بهما فأتاه بهما ، فأخذهما الرسول بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال رسول الله ﷺ : من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثة ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاه إياه ، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى ، وقال : اشتر بأحدهما طعاما فأتبذ به إلى أهلك واشترى بالآخر قدوما فأتنى به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله عودا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولأرينك بعد خمسة عشر يوما ، ففعل فجاء ، وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما ، فقال له الرسول : هذا خير لك أن تجئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة (٥) .

ومن هنا وجدنا ذلك الحث الواضح للمسعى فى سبيل التعلم والحصول على المعرفة دون الاعتماد على أصل أو حسب ودون الركون إلى سلطة ما ، فعند إخوان الصفا أنه

(١) محمد كامل حته : القيم الدينية والمجتمع ، ص ٨٩ .

(٢) جفنة فرغة البطن .

(٣) ممتلئة البطن من الشبع .

(٤) جلس البيت ، ما يبسط تحت حر المتاع ، ويقال لبساط البيت الحلس .

(٥) عباد : شريعة الإسلام ، ص ٣٢ .

ما من ' فريضة من مفروضات الشريعة ومن أحكام الناموس ولا أفضل ولا أكمل ولا أشرف ولا انفع للعبد (بعد الإيمان) ... من العلم وطلبه وتعلمه ' (١) . وهم فى ذلك يستشهدون بقول الرسول : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله تعالى حسنة وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعلمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قرابة ، فإنه معلم الحلال والحرام وبيان سبل الخير ..

وكما أن اكتساب المال يساعد الإنسان على ألا يعيش عائلة على غيره فيفقد حريته ، فكذلك بذله الجهد للتعلم ، وفى ذلك كتب الغزالي يقول (٢) : ' اعلم أن للإنسان فى عمله أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال ، إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه ، فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتضى المال ، فله حال واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، يقتضى المال ، فله حال واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، يقتضى كما ، وحال استبصار ، وهو التفكير فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال ، فمن علم وعمل وعلم ، فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فإنه كالشمس تضى لغيرها ، وهى مضيئة فى نفسها .. ' .

٣- طريقة التعليم :

لم تعكس طريقة التعليم فى الفكر والواقع التربوى الإسلامى كل مقومات الاتجاه العملى، وإنما نجد أنها قد جنحت فى بعض جوانبها ناحية النظر والتجريد وجمحت فى البعض الآخر ناحية الواقع والعمل والتطبيق مما يجعل من الصعب إصدار حكم عام عليها ..

وأول جانب منها لا ينحو الناحية العملية ، وهو شيوع ظاهرة ' التلقين ' والميل إلى الحفظ . ذلك أن أول ما كان يتعلمه الطفل هو القرآن الكريم وكان تعليمه يتم بأن يكرر الطفل (٣) ما يذكره المعلم من فقرات إلى أن يتم له حفظها بطريقة آلية ، ولم يعن المدرس فى هذه العملية بالشرح فى هذه المرحلة وتوضيح المعنى لتعذر الفهم على الطفل . وربما كان ذلك راجعا إلى تأثير المسلمين طوال أزمانهم بما كان يتبع العصر الإسلامى الأول عندما

(١) آداب المتعلمين ، ص ٥٥ .

(٢) لمرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) أسماء فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٩٦ .

كان الاعتماد على الذاكرة أكثر من الاعتماد على الكتابة لقلة العارفين بها ، وقد كان للعرب شهرة واسعة في الحفظ وقوة الذاكرة نتيجة الممارسة والمران الطويل .

ولكن ذلك لم يمنع من ظهور آراء تتقد هذه الطريقة مثلما نرى لدى ابن خلدون ، الذى يذهب إلى أن البدء بحفظ القرآن بلا فهم ، إنما هو أمر يدل على الغفلة ، ولكنه يستدرك بقوله ، إن التعليم بخلاف ذلك أمر لا تساعد العوائد عليه ^(١) .

وأكد نصر الدين الطوسى على أهمية " الفهم " فيصح التلميذ أن يبتدىء بشيء يكون أقرب إلى فهمه ، ويقول " ولا يتكسب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فإنه يورث كلاله الطبع ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته ، وينبغى أن يجتهد فى الفهم عن الأساتذة " ^(٢) .

أما " القدوة " فإنها صورة عملية نلجأ فيها إلى تقديم نموذج واقعى حتى لما نريد أن نربى الناشئ عليه ، وقد حظيت بالكثير من اهتمام المربين الإسلاميين بحيث يصعب علينا حصرها ، بل الإشارة إلى معظمها ، من ذلك ما يذهب إليه اخوان الصفا من ضرورة " تعويد " الطلاب على المهارات والأمور التى يقصدون تعلمها فيقولون : " واعلم أن العادات الجارية بالمداومة عليها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر فى العلوم والمداومة على البحث عنها والدرس لها وامتداده فيها يقوى الحنق بها والرسوخ فيها ، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والتدريب فيها يقوى الحنق بها والأستاذية فيها ، وهكذا الأخلاق والسجايا " ، ويضربون مثالا لذلك بالطفل الذى ينشأ مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح ، إذ عادة ما ينشئون وقد تعودوا الشجاعة ، وعلى العكس من ذلك إذا نشأوا مع النسوان - بأوضاعهم السابقة - والمخانيث ، وتربوا معهم ، انطبعوا بأخلاقهم إن لم يكن فى كل سلوكهم ، ففى البعض ، وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى ينطبع عليها الصبيان من الصغر إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الأخوة والأخوات أو الأتراب والأصدقاء والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم . ^(٣) .

كذلك نجد فى " اللعب " مظهرا عمليا آخرًا وإن لم يستغل كوسيلة للتعليم وكجزء من العمل مثلما تذهب المذاهب التربوية الحديثة ، فقد قدر كثير من المربين الإسلاميين حاجة

(١) مقنمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

(٢) آداب المتعلمين ، ص ١٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

الطفل إلى اللعب الترويحي واعتبرته لهذا الغرض مهما من الناحيتين العقلية والجسمية ، فنصح الغزالي بأن يسمح للطفل بأن يلعب لعبا جميلا بعد انقضاء ساعات الدرس ليجد نشاطه بشرط ألا يجهد نفسه ، فإن منع الصبي من اللعب وإرفاقه إلى التعليم دفعا يميث قلبه ويبطل نكاهه وينقص عليه العيش ^(١) .

ويسلك " العبدري " مملك الغزالي تماما ، فيحبذ بشدة ضرورة الألعاب والترويح عن الطفل ^(٢) . وقد قدرت المعاهد الإسلامية أهمية تحديد أوقات العمل والترويح بالنسبة للأطفال فمنحتهم يوما ونصف يوم عطلة في كل أسبوع : نصف يوم الخميس ويوم الجمعة علاوة على المصاحبات الخاصة بالأعياد وكذلك الأجازات في مناسبات حفظ القرآن .

ويلفت الدكتور سيد عثمان ^(٣) الأنظار إلى أهمية الأنشطة ، في عملية التعليم عند الزرنوجي ، فليست أنشطة المتعلم منفصلة عن محتواها ومراميها ، كما أن الأنشطة ليست منفصلة عن دافعية الأنشطة ذلك لأنها - أي الأنشطة - من الدافعية وفيها مؤدية إليها " نعم ليست الأنشطة شروطا مؤدية إلى التعليم أي تؤدي إليه وهي خارجة عنه ، بل هي للتعلم ، هي داخله فيه ، هي جزء منه ، هي شكله ومحتواه ، وهي غايته ومرماه ، فليست أنشطة الفهم مثلا ، شيئا مغايرا للفهم ، بل هي الفهم ، وليست أنشطة تعلم الملوك للخلق مختلفة عن الخلق بل هي الخلق " .

ولعل ما كتبه ابن خلدون عن أهمية " الرحلات " كمصدر للمعلومات ، ربما يكون من أكثر ظواهر الاتجاه العملي وضوحا حيث أن صياغته نفسها تنطق بالكثير مما نود قوله في هذا المجال ولا تلجنا إلى تأويل أو شرح وتفسير ، فهو يعقد فصلا بعنوان " في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد في التعليم " . وهو يفسر هذه العبارة بأن " البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلما ولقاء تارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة .. أشد استحكما وأقوى رسوخا " ^(٤) ، فهذا هو يضع أمامنا الطريقتين المتقابلتين ، طريق التعلم عن الكتب

(١) أحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٦٨ .

(٢) أسماء فهمي ، ص ١١٣ .

(٣) التعلم عند برهان الإسلام للزرنوجي ، ص ٦٣ .

(٤) مقامة ابن خلدون ، ص ٥٤١ .

والمحاضرات وطريق التعلم بالخبرة ، ويؤكد أن الطريق الثانى نتائجه أكثر فاعلية وأن كثرة الرحلات هى وسيلته الأساسية .

أما ابن جماعة ، فهو يسلك مسلكا يتفق كثيرا مع الاتجاه العملى ، فهو إذ يقف فى صف الذين ينادون بـ " الفهم " ، ويوضح لنا أن الفهم إنما يتم " بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ويذكر الأدلة والمأخذ لمحتملها ويبين له معانى أسرار حكمها وعللها وما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل ومن هم فيها فى حكم أو تخريج أو نقل بعبارات حسنة الأداء " (١) .

وهو يذهب أيضا إلى أن المعلم إذا شعر بالحاجة إلى استعمال اصطلاح يثير الحياء ، فلا بد من ذكره " ولا يمتنع من ذكر لفظة يستحى من ذكرها عادة إذا احتيج إليها ولم يتم التوضيح غلا بذكرها " (٢) .

٤- لغة التعليم :

ولغة التعليم المقصودة هنا هى اللغة العربية ، وغنى عن البيان أن اللغة عامة باعتبارها وعاء الثقافة كانت لها دلالة كبيرة على شكل هذه الثقافة ومضمونها ولونها واتجاهاتها ، وبالتالي فإننا عندما نفتش فى خصائص لغة ما ، وعديد من جوانبها المختلفة ، نستطيع أن نقف على صورة صادقة ، " للمجتمع " نفسه ، ومن هنا كانت أهمية البحث فى لغة التعليم المستعملة ، وهى العربية لنرى إلى أى حد كانت هذه اللغة تعبر عن نزعة " عملية " .

فقد شاع لدى البعض من يكتبون عن تراثنا أن مضمونه الفكرى فقير مختبئ وراء ألفاظ مصقولة تعطى بريقا خاطفا بحيث تخدع القارئ الذى يتوهم فيها شيئا بينما هى جوفاء ، لكن ذلك إذا جاز لنا قبوله بشيء من التحفظ عن الثقافة الإسلامية فى بدء نشأتها حيث غلبت صفة البداوة وبساطتها ، لكن لا يجوز قبوله بعد أن انتقل العرب إلى حياة المدن وما فيها من ثراء ثقافى وتعقيد وتعدد فى النظم الاجتماعية والسياسية مما يوقظ العقل ويعمق من مستواه فيلاحظ دائما الأبعاد المختلفة للفكرة ويختار لها ما يعبر عنها من ألفاظ فتجئ اللغة بذات العمق وذات الثراء .

(١) تذكرة السامع ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق .

ولعل أبرز الأمثلة التي توضح لنا هذا الاتجاه ، ' الجاحظ ' ، فالفكرة على يديه غنية غزيرة المعنى ، ومن ثم فهي لا تحتاج إلى بريق لفظ يستر منها فقرا ولللفظ عنده ميسور كل اليسر كأنه الشراب السافع ^(١) ، إذ أشار في رسالته المعنونة ' الجد والهزل ' إلى أن الألفاظ لا بد لها من أن تشير إلى مدلولات في عالم الواقع ، ومن ثم فإن اللفظ لذى يفقد هذا ، إنما أشبه بالظرف الخالي الذي نتوهم أن فيه شيئا ، فإذا فضضناه وجدناه خلويا ، وتلك من غير شك دعوة هامة لو أخذناها بجدية ، لخلصنا ثقافتنا من كثير من المشكلات التي ربما يكون منشؤها الأصلية ألفاظا جوفاء ورثناها فظننا لطول تاريخها ولكثرة استعمالها أنها تدل على واقع بينما هي مجرد لاقطة لا محل لها ، يقول الجاحظ ^(٢) :

' ولا يجوز أن يعلمه (وهو يشير هنا إلى معنى الآية القرآنية التي يشير فيها الله تعالى إلى تعليمه لأدم الأسماء كلها) الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه ، والاسم بلا معنى ، لغو كالظرف الخالي ، والأسماء في معنى الأبدان ، والمعاني في معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح ، ولو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا ، لا حركة له وشيئا لا حس فيه وشيئا لا منفعة عنده ، ولا يكون اللفظ لا حركة له وشيئا لا حس فيه ، وشيئا لا منفعة عنده ، ولا يكون اللفظ اسما إلا وهو مضمن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ولا يكون اسم وليس له معنى ' .

إن التطبيق التربوي لهذا الرأي من شأنه أن يقيم المعوج من كثير من أساليب التربية المستخدمة ، إذ أن الترجمة العملية لذلك هي أننا عندما نريد تعليم الأطفال اسما ، فلا بد وأن يقترن بذلك أن يخبر الطفل المسمى حتى تحي الألفاظ محملة بالمعاني والدلالات ، ولا يقف الأمر عند حد تعليم الأطفال القراءة والكتابة ، بل إنه ليمتد إلى فلسفة التربية كلها وذلك باشرط أن يتوافر الأساس ' الخبري ' لكل ما نعلم حتى يكون له معنى لدى من نعلم .

وإلى نفس الاتجاه ذهب ' ابن جنى ' إذ دافع عن اللغة العربية مفندا تلك التهمة التي تتهم بها وفي أن عنايتها تتجه في أغلب الأحوال إلى الألفاظ دون المعاني ، إلى الأسماء دون المسميات ، إلى النظر دون العمل يقول في ذلك :

^(١) زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول ، ص ١٤٩ .
^(٢) الجاحظ : رسالة في (الجهد والهزل) ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الختجي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

" .. إن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكاما بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف باستمرارها ، فإن المعنى أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها ، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب بها في الدلالة على القصد .. فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ... " (١) .

مظهر آخر للاتجاه العملي للغة العربية ، هو أنهم لما جعلوا الألفاظ وثيقة الصلة بالمعاني ، حرصوا على أن تكون قوة اللفظ من قوة الفعل ، فقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان : أنها تأتي للاضطراب والحركة ، نحو الغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثال حركات الأفعال . وكذلك نجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والجرجرة ، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ، وكذلك جعلوا تكرر العين في المثال دليلا على تكرير الفعل ، فقالوا : كسّر ، وفتح ، وغلّق (٢) ..

٥- مناهج التعليم :

يمكن أن نقول بلا مبالغة أن " المنهج المدرسي " هو الترجمة الحقيقية أو هو الصورة التنفيذية والإجراءات التي يؤدي اتباعها إلى تحقيق ما يدعو إليه المربي من آراء وأفكار ، ومن ثم فإن دراستنا لمناهج التعليم الإسلامي تكشف لنا عن المنزلة الحقيقية للعمل في الفكر التربوي الإسلامي .

بيد أننا هنا ينبغي قبل أن نخطو أولى خطواتنا نحو هذا الهدف لأبد - لا أن نقرر حقيقة جديدة ، ولكن لمجرد التذكير فقط - أن نضع في الاعتبار الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كان يتحرك في حدودها فكرنا التربوي ، فقد ظلت الحياة الاقتصادية في كثير من أجزاء العالم الإسلامي خلال شطر كبير من العصور الوسطى رغم ازدهارها الملحوظ قائمة على طرق وأساليب وتنظيمات وقواعد أولية بحيث لم تظهر الحاجة للإعداد لها عن طريق تعليم نظامي ، ولو أن تعليما نظاميا قام وقتئذ للإعداد للحياة الاقتصادية لكان ذلك ترفا

(١) المعقول واللامعقول ، ص ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

لا مبرر له . ومن هنا بقيت الثنائية بين تعليم الحياة الاقتصادية غير النظامي ، وتعليم المدرسة النظامي : الأول عملي يتم في سياق الحياة ، والثاني نظري يأتي إضافة على الحياة أو استكمالاً لها دون أن يكون له صلة بالإنتاج ^(١) .

وإذا كنا قد قلنا أن التراث الإسلامي قد عرف من العمل أنواعاً متعددة ، منها العمل الإنتاجي وأنه قد نال حظه من التقدير والاحترام والتبويه ، إلا أنه من الضروري ألا يغيب عن بالنا ما يمكن تسميته " بالروح العامة " التي كانت تسمى في الحياة في تلك المنطقة ، وهي الروح الدينية بحيث ينظر في تقييم الأمور إلى مدى ما تسهم به في إعداد الفرد للعالم الآخر ، صحيح أن من مبادئ الإسلام الأساسية أن الحياة الدنيا (مزرعة) بمقدار ما تزرع فيها ، نجده في الآخرة ، إلا أن هناك من كانوا ينامون ذلك ، ومن لا ينامونه ، ولا يبرح ذهنهم أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو إلا عرض ، وحالة مؤقتة وأنا كراكي قطر كل منا ينزل في إحدى المحطات ، ثم هناك المحطة النهائية التي تنتهي عندها المسيرة لتبدأ حياة أخرى هي الأصل ، وهي الدائمة .

لا نقول ذلك من باب التقليل من شأن هذا الاتجاه ، وإنما حتى يتم لنا " الفهم " الدقيق والوعى الحقيقي باتجاهات الفكر التربوي الإسلامي نحو العمل ، إذ أن معنى ذلك هو شيوع أساليب وصور من الأعمال التي قد لا نخلفها الآن في مفهوم العمل ، ولكنها في العصور السابقة كانت تمثل أنصع صورة وأعلاها قيمة ، فالقيام بالشعائر الدينية من صلاة وقراءة القرآن وإيتاء الزكاة والحج وغيره هو " عمل " حقيقي من وجهة النظر القائمة ، بل يمكن القول بأنه هو " العمل " المنتج حيث أن الإنتاج يقاس بمقدار الإعداد للحياة في العالم الآخر .

ولعلنا بعد هذا عندما نفتش في الآراء المختلفة التي ساقها المفكرون - الإسلاميون لبيان ما ينبغي للتلميذ أن يتعلمه ثم نجد أن المواد الدينية هي التي تمثل مكان الصدارة ، لا نيلد إلى الحكم بأن هذا دليل واضح لغياب النواحي العملية في تقديرهم ، خاصة وإذا أضفنا إلى ذلك أن ممارسة الشعائر الدينية لم تكن هدفاً في حد ذاتها وإنما هي وسيلة ينبغي منها " الملوك " الذي من شأنه أن يسعد الفرد ويسعد الجماعة حسب التصورات الإسلامية .

(١) محمد أحمد الغمام : تطور العلاقة بين الاقتصاد والتعليم ، ص ١٥ .

ومن ثم تأتى دراسة القرآن فى المقدمة لأنه مرجع المسلمين فى معرفة العبادات والمعاملات ، ولا سبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن ^(١) ثم سائر العلوم الدينية الأخرى .

ولنا بعد ذلك أن تتساعل عن المواد الدراسية الأخرى التى كانت تعتبر بحق معينة فى الحياة العملية ، من هذه المواد " الشعر " الذى ربما إذا قيمناه بمعاييرنا الحالية ، لنأينا به عما يعين على الحياة العملية ، لكن المربين الإسلاميين اهتموا بأن يتعلمه التلميذ لأنه " يقيم لسانه ويفصحه ويأنس إليه فى بعض الأوقات ويستشهد به فيما يريد بيانه " .

أما " الحساب " فقد كان يعد ضروريا فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، وهذا ما يؤكد ابن رجب البغدادي " كذلك الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به قسمة الفرائض والوصايا والأموال التى تقسم بين المستحقين لها " ^(٢) . وإذا كان هذا مما يدخل فى المصلحة الدينية ، إلا أن الجاحظ يضيف على هذا قيمته النفعية الاجتماعية وضرورته فى ضبط الحضارة والعمران ، وفى ذلك يقول : " فاللدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل " (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَكَثَّرَ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِنْدَ الْمُنِينَ وَالْحِمَابَ) والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة لولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب فى الآخرة . وفى عدم اللفظ وفساد الحظ والجهل بالعقد ، فساد جل النعم وفقدان جمهور المنافع واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما ، ومصالحة ونظاما ^(٣) .

كذلك فإن من يجد فى مناهج التعليم التى ينصح بها المفكرون الإسلاميون مادة مثل (أيام العرب) سيقع فى ظنه بأنها مادة نظرية بحتة لا صلة لها بالحياة الاجتماعية ، وهذا ظن خاطئ ، فهذا هو القابسى مثلا ينظر لدراسة هذه المادة من حيث أنها محركة لهم الأطفال نحو أعمال البطولة ، وباعثة لهم على أفعال الخير ، ونحن نعلم أن المحاكاة فطرة نفسية تدفع الأطفال إلى تقليد الأعمال من غير قصد أو شعور . وذكر الابنابى " أن يتعلم

(١) أحمد فولاد الأهوانى ، التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) الجاحظ : (البيان والتبيين) ، تحقيق عبد السلام هارون ، الخاتجى ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٨٠ .

الأطفال القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغمس في نفسه حب الصالحين^(١).

وعلى الرغم من خلو معاهد التعليم الإسلامية من العناية بالجانب الجسمي من الإنسان ، إلا أننا إذا رجعنا إلى المنة النبوية منجد فيها ما يشجع على ذلك ، فقد فسر الرسول ﷺ قوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " بأن المراد بالقوة ، هو " الرمي " فقال : " ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي " (٢) . وقد قال العلماء في شرح هذا الحديث : فيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية بإعدادها ليتمرن بذلك الإنسان على الجهاد ويتدرب فيه ويروض أعضائه . كذلك روى عن الرسول قوله : " حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي " . فنكر هنا نوعا آخر هو السباحة حيث أنها ترويض لأعضاء الجسم كله وهي بإطلاقها تشمل حركة الجسم في الماء والتجديف وسائر ما عرف من أنواعها هذه الأيام .

وإذا كانت العلوم الدينية قد غلبت على مناهج التعليم في العصور الإسلامية الأولى ، فإن العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية قد بلغت ذروتها في القرن الرابع ، ففي الطب والجراحة وعلم الأدوية والفلك والفسولوجيا وصل العرب إلى كشوف هامة وإن كانت تعتبر الآن أولية ، ففسروا انكسار الضوء والجاذبية ، وقدروا وزن ارتفاع الهواء والوزن النوعي للأجسام وعملوا جداول مختلفة للأبحاث الفلكية وأوضحوا مقدار الخطأ في المرئيات لنتائج عن انكسار الضوء ، واخترعوا أشياء أخرى وعلموا أوربا استعمال البوصلة والبارود (٣) .

ومن أخطر النصوص التي تصرخ بالاتجاه العملي حقا ، ما ذكره ابن الهيثم عن نفسه فيما يأتي : " ازديت عوام الناس ولم ألتفت إليهم واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندي أنه ليس ينال من الدنيا شيئا أجود ولا أقرب من الله من هذين الأمرين ، فخصت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع العلوم والديانات فلم أحظ من شيء منها بطلل ولا عرفت منها للحق منهجا ولا إلى الرأي اليقيني مسلكا ... فرأيت أنني لا أصل إلا عن آراء

(١) الأهواني : التربية في الإسلام ، ص ١٧٩ .

(٢) محمود ثلثوت : من توجهات الإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، د.ت ، ص ٥٧ .

(٣) أسماء فهمي : التربية الإسلامية ، ص ٦٣ .

يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية : فلم أجد أرسطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والهيئات ^(١) .

٦- المنطق العملى :

للنظريات المنطقية العديد من الخصائص والسمات ، فإذا ما أردنا أن نضع أيدينا على أهم هذه الخصائص والسمات من الناحية التي تهمننا نحن رجال التربية ، فسوف نجد أنها تحليل لمفاهيم الثقافة وطرائقها تحليلاً يبرز صورها ، ومن ثم كان الارتباط وثيقاً بين النظرية المنطقية وبين الأساس الذى تقوم عليه الثقافة فى العصر المعين . وإذا كانت مهمة التربية الأساسية هى نقل الثقافة من جيل لآخر وتجديدها وتطويرها ، كان لابد أن ترتبط بما يكون بين النظرية المنطقية فى عصر من اختلاف عنها فى عصر آخر ^(٢) .

فالمأمل فى الثقافة اليونانية القديمة ، يجد أنها رياضية فى صورتها ومبناها ، وإن لم تكن كلها رياضية فى مادتها وفحواها ، بمعنى أنها كانت تسير من مبدأ مفروض على النتائج التى تتولد من ذلك المبدأ ^(٣) ، وكل ما هو مطلوب هو أن تتناسق المقدمات مع ما تولدت عنه من نتائج ، فلا تتناقض معها ، أما أن تتفق هذه النتائج مع الواقع الخبرى أم لا ، فلم يكن ذلك يغير من الأمر شيئاً ، لذلك فإن مفكراً مثل أرسطو حين نهض ليرسم الطريق السليم للفكر الصحيح ، نجد أنه ترسم خطوات التفكير الرياضى الاستنباطى فجاء منطقته عاكساً لهذا النهج من التفكير والذى فيه تستمد النتائج يقينها من يقين مقدماتها لا من الواقع الخبرى الذى يحياه الناس .

وقد كانت الفكرة السائدة لدى الباحثين ، من شرقيين وأوربيين أن المنطق الأرسطى كـوبل فى العالم الإسلامى - حين ترجم وتوالت ترجماته - أحسن مقابلة ، فسرعان ما اعتبرته المدارس الإسلامية - على اختلاف نزعاتها وتباين أغراضها - قانون العقل الذى لا

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٢) سعيد إسماعيل على : نقد ديوى للنظرية المنطقية الأرسطية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٤ .

(٣) زكى نجيب محمد : وفلسفة علمية ، الأجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤ .

يرد ، والمنهج العلمى الثابت .. تعاريفه وحدوده ثابتة ، وأحكامه وقضاياها مسلمة ، وأقيمت
منتجة لليقين وموصلة إلى العلم من حيث هو (١) .

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن ننكر تأثير المسلمين بهذا المنطق وشيوعه فى كتابات
فلاسفة الإسلام إلا أننا لو فتمنا فى مملى الفكر الإسلامى الحقيقى من متكلمين وأصوليين
وفقهاء ، فسوف نجد أنهم قد وضعوا أيديهم - بجانب المنطق الصورى الأول - على منطق
آخر علمى تجريبى .

فى كتابات عالم مثل جابر بن حيان على سبيل المثال ، نجده يؤكد على أن "الدربة"
هى التى تجعل العالم عالما حقيقيا ، يقول : " فمن كان دربا كان عالما حقا ، ومن لم يكن
دربا ، لم يكن عالما . وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع " . وقد لاحظ الدكتور زكى نجيب
محمود أن الدربة تعنى التجربة (٢) ، ويقول جابر أيضا " أن الصانع يحق ، غير الحرب
يعطل " .

كذلك يلفت الدكتور زكى النظر إلى نقطتين تؤكدان علمية منهج جابر واتجاهه العلمى ،
أولا هما ، إشارته إلى ميل النفس البشرية إلى توقع تكرار الحادثة التى حدثت ، فكأنما
الاستدلال الاستقرائى مبنى على اعتماد فطرى فى طبيعة الإنسان ، ونحن نجد هذا المبدأ
نفسه لدى جون ستوارت مل ، أما ثانيهما فهو كون درجة احتمال التوقع يزداد كلما زاد
تكرار الحوادث ، وهى نظرية حديثة لها تفصيلات كثيرة (٣) .

ولم يكن جابر هو الوحيد بطبيعة الحال فى تبني المنطق العلمى التجريبى ، فهناك
آخرون كثيرون لا يسمح المجال بتتبعهم ، ونكتفى هنا بالإشارة إلى (ابن الهيثم) فهو يحثنا
فى بحث عن كيفية الإبصار حديثا هاما يبرز " تجربيته " ، فيقول : " نبتدى فى البحث
باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما
يخص البصر فى حال الأبار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية
الإحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاء المقدمات ،

(١) على سبيل النشر : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، تصدير المؤلف
للطبعة الأولى .

(٢) زكى نجيب محمود : جابر بن حيان ، مكتبة مصر ، القاهرة ، سلسلة أعلام العرب ، ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧ .

والتحفظ فى النتائج . ونجعل عرضنا فى جميع ما نستقر به ونتصفح استعمال العدل لا اتباع للهوى ، وتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى به يثلج الصدر . . . (١) .

وبعد فهذه آيات العمل وصوره فى الفكر التربوى فى تراثنا نود قبل أن نتركها أن نؤكد مرة أخرى أننا لا نعى بكل ما قلناه أن السمة العملية هى وحدها التى سادت ، وأن العمل هو وحده الذى كان المحور الأساسى ، وإنما قصدنا أن نؤكد أنه كان قائما وبوضوح ، وأنه كان أساسيا ، لكن مع الاعتراف بأن مفاهيم أخرى مناقضة واتجاهات أخرى مغايرة ، كانت قائمة أيضا ، ولا غرو فى ذلك فالحضارات العظمى غالبا ما تحوى فى باطنها الألوان المتضادة والاتجاهات المتعارضة ، ولعل هذا التضاد وذاك التعارض ينشئ حيوية ويوجد ثراء ، ويكون مصير الحضارة متوقفا على النتيجة التى تنتهى إليها عمليات الصراع بين المتضادات والمتناقضات ، وغاية ما يمكن أن نشير إليه أن هذه الأمة ما كان يمكن لها أن تقم حضارة عظيمة استمرت عديدا من القرون إلا لأن أصحابها قد انتهجوا فى حياتهم فى كثير من الأحيان نهجا عمليا ، ثم أنهم إذ رأوا هذه تتفكك وتتهاوى فلأنهم بعد ذلك ركنوا إلى الدعة والتواكل والتكاسل ، ووقعوا أسرى الخرافات واللامعقولية وساعد على ذلك وقوع الأمة فى شباك سيامة نمتجت من الاستغلال والقهر والاستبداد .